عنترة بن شدّاد

٥



دار المعارف بمصر

عنترة بن شدّاد

٥

تأليف

حسن جوهر
محمد أحمد برانق
أمين أحمد العطار

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

١

أمر خداوند فنودى فى جيشه ، أن انتهت الحرب إلى صلح وألفة ، فلكل قبيلة مؤازرة أن تعود إلى ديارها ، وعلى جيش كسرى أن يستعد للرحيل صباح الغد إلى الحيرة . فبش الجيش بشاشة الراحة ، ورف رفيف الاطمئنان والسلامة ، واستقبلوا هذا النداء استقبال العافية ، وأخذ جميعهم يعدون للرحيل العدة ، وكأنهم صادرون عن مورد سقوا منه ماء الإخاء والمودة.

وفى الصباح ، تحرك جيش خداوند ، ومعه النعمان وعنترة ، وحجار وعروة ، وجد بهم المسير حتى كانوا بالحيرة ، وهناك استقبل أهلها النعمان استقبال الناس لأيام الربيع ، بعد محنة حجبت عن عيونهم الضياء ، ومحت من نفوسهم الصفاء ، وعرفوا أن من يطيع الشك فى أوليائه ، ويستمع للحاقدين على المخلصين من أوفيائه ، فقد ضل قصد السبيل ، وكان كيده فى تضليل ، وأن العاقبة الحسنى للصادقين .

ضرب جيش خداوند قبابه ، ونصب خيامه ، وأقام فى ضيافة النعمان ثلاثة أيام فى حفاوة كريمة وعزة ، ثم رحل بجيشه إلى أبيه ؛ ولبث النعمان وعنترة فى الحيرة ، ينتظران رأى كسرى بعد لقاء ابنه .

ورأى النعمان فى عنترة الجوهر الحر ، والمعدن الكريم ، وأنه خلص

من عرك العبودية بسيفه حر الوجود ، متأبياً على الحوادث أن تطمره ، وعلى الأطماع أن تتناهبه ؛ يؤثر الرجولة على شهوة نفسه ، باذلا فى سبيلها كل ما يملك . قال له النعمان :

علينا الآن أن نفى لك ببعض حقك ، بالعمل على زواجك من عبلة .

فقال عنترة :

لا أبغى شيئاً لنفسى ما دام الواجب يدعونى ، ولن أبرح أرضك حتى يُمَكَّن لك فيها ، ويعود إليك ملكك أقوى سلطاناً ، وأشد بنياناً ، وإلا أشعلتها فى فارس ناراً ماحقة ، وحرباً ساحقة ، وبوأتك منها مكان كسرى .

فشكر له النعمان فضله ، وكان فى فيض من السرور به .

* * *

وصل خداوند إلى أبيه ، فسر بمقدمه سروراً عظيماً ، وبعد أن هنأه شعب أبيه بسلامة العودة ، اختلى به أبوه فى قصر الملك ، وحدثه بكل ما جرى ، ولما انتهى من حديثه قال أبوه :

وكأننى ظلمت النعمان بما فعلته به ؟ !

فقال ابنه :

نعم ، وأعطيت ملكه إلى من لا يستحقه ، ولا يقوى على أعبائه ، ولا يسير معنا سيرته ، ولقد كان النعمان أكرم منا ، إذ أخذته بالشك على غرة ، وأخذنا هو بالصفح والمغفرة ، وهو فى أوج قدرته ، ونحن

فى الحضيض من الضعف والذلة .

فقال كسرى :

وماذا ترى ؟

فقال ابنه :

أرى أن تثبته فى ملكه ، وتعلن رضاك عنه بما تمنحه من هدايا ، على أن يكون لعنترة الحظ الأوفى منها !

فقال كسرى :

ولقد كان جديراً بى أن أتثبت قبل أن أحكم ، وأقدر قبل أن أقطع .

فقال ابنه :

لا يزال تدارك الخطأ أمراً مرجواً ، فقد تركت الجو كله صفاء ، بما استقر بين المتباغضين من ألفة ووئام ، ولك أن تأمر بتنفيذ ما عرضته عليك فى أمر النعمان .

فقال كسرى :

ذلك ما ينبغى أن يكون .

ثم أصدر أمره ، وبعث به وبهداياه الى النعمان فى الحيرة ، فسر النعمان وعنترة سروراً عظيماً .

٢

ولما استقر بالنعمان ملكه ، وانكشفت غياهب الحوادث عنه ، استأذنه عنترة فى العودة إلى دياره ، فأذن له على ألم لفراقه ، وودعه أكرم وداع ، وأهدى إليه الوفير من المال والمتاع .

سار عنترة ورجاله وصحبه إلى أرض الشربَّة ، فنزلوا فى طريقهم على ماء بالحجاز يقال له القوام ، ليلبثوا فيه ليلة للراحة والجمام ، وأراد عنترة أن يتولى بالليل حراسة من معه ، فأبى عليه ذلك عروة ، ليأخذ حظه من الراحة ، إذ لم يذق عنترة للنوم طعماً منذ غادر أرض العراق ، فنام عنترة معتمداً على حراسة عروة ومن اختارهم معه من الفرسان ، ولكن النوم غلب الحراس فى السحر ، فأسلموا رءوسهم إليه ، حتى أيقظهم جميعهم الصباح بضوئه ، فلم يجدوا لخيلهم أثراً ، فسأل عنترة عروة عن ذلك ، فصدقه الحديث ، وأعلمه أن النوم غلبه هو وجماعته ، ولم يدر من أمر الخيل شيئاً ، فاغتم عنترة وقال :

ذلك جزاء من فرط فى أمره ؛ وأمر جماعته أن تنتشر فى الصحراء ، عسى أن يعلموا من أمر الخيل شيئاً ، فضربوا فى الفيافى هنا وهناك ، ثم عادوا بخفى حنين ، فاستعرت فى صدر عنترة نار الغضب وقال :

إن كأس المنون أشهى مذاقاً من هذه الحال ، ثم التفت إلى جرير أخيه ، وأمره أن يأتيه بجواد من أى حى يلقاه ، ولم يكن شيبوب معه ، إذ كان قد أرسله مع عبلة خوفاً عليها من بنى زياد حتى يعود من رحلته ، ولما هم جرير بالمسير ، سمع عنترة صهيل جواده الأبجر ، فالتفت إليه فألفاه مقبلا عليه ، فى سرعة البرق أو أشد ، حتى وقف بين يديه ، فاستبشر عنترة بقدومه ، وقال لعروة :

لقد فتح باب الأمل ، وسأسبقكم إلى البيداء على عجل ، حتى أقف على أمر العدا ، وأسقيهم كأس الردى ، وأرد إليكم خيلكم ، فاركبوا إبلكم ، واقتفوا أثرى من خلفى .

وطار عنترة بجواده فى القفار ، فما وقع على خبر ، ولا عثر على مقيم أو عابر ، ولما اشتد عليه الحر ، نزل عن جواده ، وجلس بجواره ، حتى ينسم الراحة ، ويستعيد بالجمام نشاطه . وما لبث أن رأى رجلا يجرى كأنه السحاب ، ومن خلفه خيل تعدو ولا تشق له غباراً ، فركب عنترة جواده وأسرع إليه ، فألفاه شيبوباً أخاه ، مكتوف اليدين ، يجر فى عنقه حبلا طويلا ، فسأله عنترة عن حاله ، فقال :

عَجِّل بقتل هذه الطائفة التى تتبعنى بخيلها ، ثم اجلس إلىّ واستمع لقصتى . فلم يتوان عنترة لحظة ، وأسرع إلى لقائهم ، وكانوا مائة فارس ، فأعمل فيهم سيفه ، فقتل منهم من قتل ، وهرب من هرب ،

ثم رجع إلى أخيه ، فحل وثاقه ، وجلس يستمع له ، فقال :

حديثى طويل ، فحدثنى أنت عن حالك ، وكيف جئت إلى هذه الساحة فى تلك الساعة ؛ فقص عليه عنترة خبره ، وأنه جاء ليبحث عن خيله ، فابتسم شيبوب وقال :

لقد كانت سرقة خيلكم سبباً فى نجاتى من هلاك محتوم ، فقد سرقها أربعون سلالا من أمهر سلالى العرب ، على رأسهم أويس بن السعلاء ، وقد تبعوكم من العراق ، طمعاً فيما معكم من المال والخيل والهدايا ، ولما سرقوها وجدّوا فى المسير ، استنكر فرسك الأبجر السَّوْق واستعصى على راكبه ، وحاول بكل السبل تذليله وإخضاعه ، فلم يستطع إلى ذلك سبيلا ، ثم انفلت الأبجر منه ، ورجع على الأثر فى سرعة الريح .

أما اللصوص فقد التقوا ببنى زهران فى الصباح ، وكنت أسيراً عندهم ، فقام بينهم القتال على أشده وظلوا يتقاتلون حتى قتل بعض اللصوص ثم هرب من هرب منهم ، فانتهزت فرصة اشتباكهم ، وهربت منهم على نحو ما ترى ، وتركت الحارث بن زهير أسيراً لديهم .

فهم عنترة أن يذهب إليهم ، ليقضى على بقيتهم ، ويخلص الحارث ابن زهير من أسرهم ، فقال شيبوب :

اصبر قليلا حتى يأتيك عروة ، ثم افعل بهم ما تريد فعله .

فقال عنترة :

رأى مطاع .

٣

بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، وانتهت بين زهير وخداوند بالصلح ، وعقد أواصر الإلفة ، رجع بنو عبس إلى ديارهم مغتبطين بما أوتوا من قوة حفظت لهم كرامتهم ، وجعلت لهم وجوداً بارزاً بين قبائل العرب ، فأقاموا مطمئنين فرحين ، حتى يعود إليهم عنترة ومن معه من الحيرة ، وجعلوا يخرجون للصيد والقنص كعادتهم أيام سلمهم .

وذات يوم خرج الحارث بن زهير فى جماعة من صحبه للصيد واللهو ، فأمعنوا فى البرية ، حتى كانوا بوادى اليعمورية ، فلاحت له غزالة ، فطاردها ، فعدت أمامه تطلب مهرباً ، فأرخى العنان لجواده من خلفها ليلحقها ، وما زالت تعدو وهو يعدو وراءها ، حتى انتهت إلى غدير واسع حوله خيام منصوبة ، وقباب مضروبة ، وأعلام مرفوعة ، ليس بها راجل ولا فارس ، ولكنها عامرة بالنساء والصبيان ؛ وكان على شاطئ الغدير طائفة من بنات حسان ، ومن بينهن فتاة كأنها القمر تسمى لبنى بنت المعتمد ، فلما رآها الحارث بهره جمالها ، فشغف بها حبًّا ، وكانت الغزالة قد أعياها العدو ، فلاذت بالبنات اللاتى حول الغدير ، ودخلت بينهن ، كأنها تطلب

منهن حماية لها وذوداً عنها ، فسلم الحارث عليهن ، ثم قال للبنى :

لى عندكن غزالة أرهقت جوادى ، وقطعتنى عن صحبى ، فهل لك أن تدعيها لى ، حتى أعود بها فى سلام إلى أهلى ؟

فقالت لبنى :

دع عنك هذا الطلب ، فقد لاذت بنا ، وأعطيناها ذمامنا وعهدنا ، ولا سبيل لك فى الحصول عليها ؛ ثم قالت ، وكانت قد أحست فى قلبها رغبة فى إطالة الحديث معه :

أيها الحر الكريم ! ضع اللثام ، وأخبرنا مَنْ قومك بين الأنام ؟

فرفع الحارث اللثام عن وجهه فى ابتسامة متألقة ، وقال :

أنا الحارث بن زهير ، سيد بنى عبس وعدنان .

فقالت لبنى :

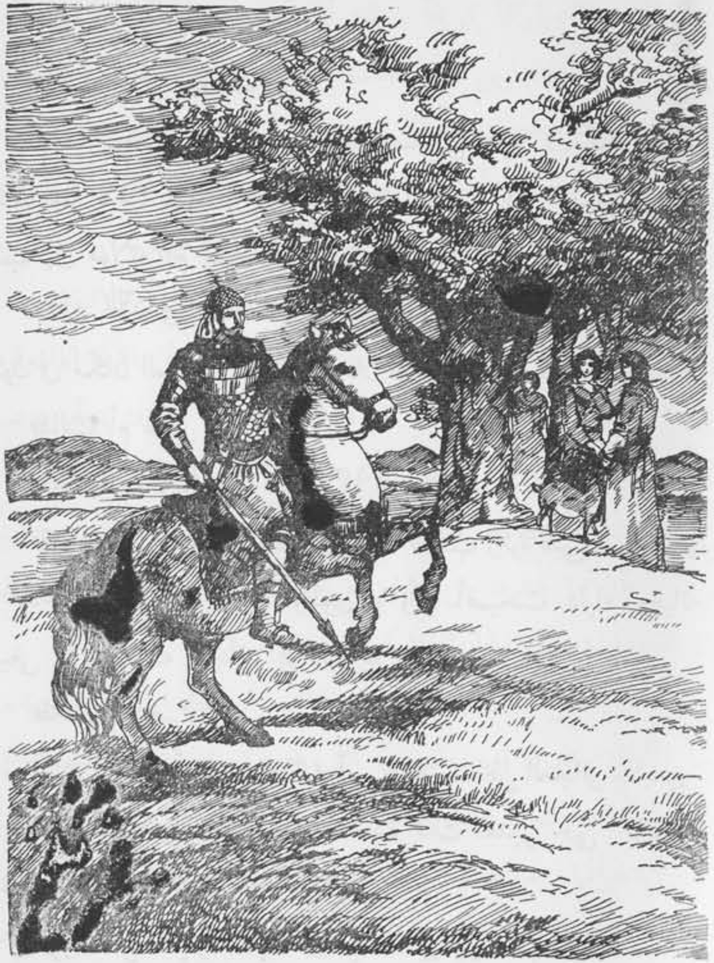
ماجد كريم ، وابن عاهل عظيم ، ولقد جاءت بنا رجالنا لنقيم فى دياركم ، لائذين بكنفكم .

فقال الحارث :

مقام آمن ، وعلى الرحب والسعة ، وأين الرجال ؟

فقالت لبنى : ساروا فى غلس الفجر إلى بنى فزارة ، ليحضروا وليمة لحذيفة بن بدر .

فقال الحارث : وليمة هنيئة ، ويعودون فى سلامة .



الحارث بن زهير يتحدث إلى لبنى وقد لجأت الغزالة إليها ومعها صواحباتها

فقالت لبنى :

سلمت أنت وعوفيت .

ثم حيّا وقفل راجعاً ، وهو فى محنة من الهوى لا يكاد يطيقها ، وبات ليلة قاسية لم يطعم جفنه النوم فيها ، وما كاد الصبح يظهر حتى ذهب إلى مولاته أم ضرار ، فقال :

جئتك الآن فى أمر عظيم ، وقضاؤه حبيب إلى نفسى ، على أن يكون فى مكان السر من نفسك ، فلا تطلعى عليه أحداً .

فقالت أم ضرار :

سمعاً وطاعة ، وأرجو أن يتم كما تريد .

فقص عليها قصته ، وطلب إليها أن تذهب زائرة للبنى ، وتبث إليها ما أودعته فى قلبه من الوجد والهوى ، وأنها أصبحت دنياه وحياته ، ويبغى أن تكون له زوجاً ، ثم تعود بما تجده .

فقالت أم ضرار :

أبشر ببلوغ مأربك ، فذلك أمر علينا — نحن العجائز — يسير .

قامت أم ضرار فى ساعتها قاصدة ذلك الغدير حتى كانت بين البنات ، فسألنها عن حالها ، فقالت :

غريبة عن الديار ، ألجأها تعب المسير إلى طلب الراحة .

فقلن لها :

نزلت منزلا مباركاً كريماً ، ولك أن تنعمى بما تشائين .

فنزلت ضيفة عليهن ، وأخذت تتحدث معهن شئون الحديث ، حتى أتين بها على حديث الغزالة وابن زهير ، فعرفت فتاته ودبرت فرصة وانتحت بها ناحية ، وأطلعتها على ما يكنه لها صدر الحارث بن زهير من حب عظيم ، فوجدت لبنى عند أم ضرار حاجتها ، ونفضت لها مكنون صدرها ، من هيام بالحارث ، ورغبة ملحة فى الالتقاء به ، ووكلت إليها تدبير ذلك فى خفية ، على أن يكون فى الليلة القادمة ، فوعدتها بذلك على أن يكون اللقاء تحت شجر الأراك ، ثم ودعت البنات شاكرة لهن جميل اللقاء وكرم الضيافة ، وانصرفت لشأنها .

وجاءت الحارث ، فأخبرته أن فتاته لبنى بنت المعتمد من بنى زهران ، وأن ما عندها من الهيام به أشد مما عنده ، وأن موعد اللقاء الليلة القادمة ؛ فسر الحارث وشكر لها جميل سعيها .

ولما أقبل الليل صحب أم ضرار إلى الغدير ، فجلسا تحت شجرة من شجر الأراك يرتقبان قدوم لبنى ، التى خرجت إذ ذاك من خبائها إلى الغدير للنزهة ، فلما كانت عنده ، دارت أعينها فى جنباته ، فرأتهما جالسين ينتظرانها ، فنشطت إليهما ، ثم سلمت وجلست ، وجعل كل منهما يبث إلى صاحبه وجده وغرامه ، حتى لاح ضوء النهار ، فتعاهدا على المحبة والولاء ، وأن يكون هذا المكان موعدهما فى اللقاء ، ثم ودعها وانصرف .

جعل الحارث يختلف إلى هذا المكان ، حتى جاءه ليلة فلم يجد به أحداً ، فأصابه غم وقلق عظيمان ، وتحسر على ديار أقفرت وربوع خلت فلا تسمع فيها غير صوت الحادى !

٤

كان لأبى لبنى ابن أخ يدعى جرير بن معبد ، وهو فارس مذكور ، ولكنه دميم الخلقة ، فاسد الفطرة، ملوث السجايا ، وهو يحب لبنى حبًّا شديداً ، وطلب يدها من أبيها ، فأبى أن يضع ابنته فى تنور من خُلُق لئيم ، وخَلْق دميم ، فتوعده بانتقام أليم ، وزواج منها رغم أنفه ، فطلب والدها المهرب منه إلى الغدير ، حيث يكون فى كنف الملك زهير ، وهناك التقى الحارث بابنته ، وعقدت بينهما أواصر المحبة والوداد .

وبعد مدة من مقامهم أتاه كتاب من ملكهم الأشعث بن صرمة ، ينبئه أنه وقف على أمر ابن أخيه جرير معه ، وأنه لذلك حبسه مقيداً فى الأغلال ، ويطلب إليه العودة إلى الديار ، آمناً على نفسه وابنته من كل عابث ، فاطمأن أبوها إلى قولته ، ورجع إلى أهله وعشيرته .

* * *

رجع الحارث من الغدير حزيناً مكسور القلب قلقاً على فتاته ، خاشياً ألا يلقاها ولا تجمعه بها الأيام ، فماذا يصنع ؟

إن عنترة الفوارس فى العراق فمن يا ترى يستبدل به معيناً ؟! ورأى أن يلجأ إلى شيبوب ، فاجتمع به ، ونفض إليه ما فى صدره ، وطلب إليه صدق المعونة ، وأن يصحبه إلى ديار لبنى ، ويحتال فى لقائه بها ، فقال شيبوب : لا تخش فشلاً ، واجعل هذا بينى وبينك ، حتى إذا أظلم الليل ذهبنا إلى حيث تريد ، وهناك يفعل الله ما يريد .

وفى ظلام الليل خرج الحارث وشيبوب إلى بنى زهران ، وجعلا يقطعان البيد والقفار خمسة أيام حتى أوفيا على خيامهم ، فقال شيبوب : لتلبث أنت هنا ، حتى أذهب إلى الأحياء وآتيك بخبر لبنى .

وجعل شيبوب يجوب الأحياء ، متنقلا هنا وهناك ، حتى اجتمع بها ، وأعلمها أن الحارث فى انتظارها ، ففرحت بذلك فرحاً عظيماً وقالت : جئتَ إذ اشتد الكرب ، وضاق علىّ الأمر ، فقد رغب أبى أن يزوجنى هذه الأيام من ابن ملكنا الخيثعور ، الذى لا أستسيغه ولا أهواه ، ثم تغفلت أهلها ، وخرجت هى وشيبوب إلى الحارث خفية حيث ينتظرهما ، فكان اللقاء حميداً ، وسَعْىُ شيبوب مشكوراً ، ثم أشار عليهما شيبوب أن يعجلا بالهرب ، حتى لا يجدّ من الأمر ما لم يكن فى حسبان أحد ، فعملا برأيه ، وعاد الحارث بها سائراً إلى دياره .

تفقد المعتمد ابنته لبنى فى الصباح فلم يجدها ، فأصابه من الهم لفقدها ما أصابه ، وبلغ ابن الملك أمرها ، فركب هو وأبوها فى أكثر

من خمسمائة فارس ، وخرج يقصها ، ويقتفى آثارها ، عسى أن يعثر عليها ، أو يقف على خبرها.

وسأل ابن الملك أباها عنها فقال :

لا أدرى أين ذهبت ، ويغلب على ظنى أنها خطفت إلى بنى عبس لأنى سمعت أن الحارث بن زهير أغرم بحبها ، ولا بد أن تكون له يد فى إخفائها.

فاغتم الخيثعور وأصر أن يقاتل بنى عبس أجمعين من أجلها .

أما شيبوب والحارث ولبنى فإنهم ساروا فى جنح الظلام حتى وصلوا فى الصباح إلى مرج الظبى وجبل السنام ، فنزلوا فى بعض نواحيه ، وقد أمنوا من أن يدركهم أحد .

وطلع عليهم فى مكانهم هذا عشرة عبيد أشداء ضخام الأجسام ، وكانوا قد اتخذوا هذا الجبل لهم مقاماً ، يخرجون منه إلى سفك الدماء وقطع الطريق ونهب السابلة ، واعتصموا فيه بكهف حصين منيع ينظرون منه الأشياء على مسيرة ثلاثة أيام ، ورئيسهم حابس بن عابس ، فقال لصاحبى لبنى :

اتركا هذه الفتاة وانجوا بنفسيكما ، وإلا أهلكناكما .

فما أتم كلامه حتى كان شيبوب قد أرسل فى صدره نبلة من كنانته فخرجت من ظهره وسقط قتيلا ، فهجم العبيد عليهم وقتلوا جواد الحارث ، ولكن شيبوباً ابتعد عنهم وجعل يرميهم بنباله واحداً فى إثر

واحد حتى قتل منهم ستة رجال ، فظن الأربعة أنه من مردة الجان ، لأن رئيسهم حابساً كان يحدثهم أن هذا المكان يسكنه كثير من الجان ، وفروا هاربين منه ، ولكنه جرى من خلفهم وقتل بنباله اثنين وفر العبدان الباقيان ، ورجع إلى الحارث ظافراً فائزاً ، فابتسم الحارث وشكر له مهارته فى رمى النبال وقال :

ما أشبهك بأخيك عنترة ! ولكن ماذا نفعل وقد قتل جوادى وأصبحت راجلا فى هذه البيداء ، والديار بعيدة ولا آمن أن تدركنا خيل فنهلك ؟ ! !

وما كاد الحارث يتم كلامه حتى رأوا غباراً ثائراً لبنى زهران وفيهم الخيثعور وأبو لبنى إلى جانبه ، فامتقع وجه لبنى وفاضت دموعها وخشيت أن تقع فى أيديهم ، وقال الحارث :

يا شيبوب ! إن وقعنا فى أيدى هؤلاء فقد هلكنا وليس لنا من دونهم شفيع ولا نصير .

فقال شيبوب :

هيا بنا إلى سقيفة العبيد ، فهى حصننا المنيع الأمين ، وسأرمى كل من رامنا بسوء بنبالى ، ولا أدع أحداً يقدر على الوصول إلينا فى سقيفتنا هذه ، وإذا استطعنا الهرب خفية هربنا . ثم حمل شيبوب لبنى وصعد بها إلى السقيفة فى أعلى الجبل لأنها لم تقدر على الصعود وحدها ، وجعل الحارث يخطو من خلف شيبوب ، ولكنه عجز عن الصعود مثله ،

فأدركته خيل بنى زهران وأخذوه أسيراً .

وضع شيبوب لبنى فى سقيفة العبيد ورجع إلى الحارث يعينه على الصعود فوجده قد أسره بنو زهران فرجع إلى لبنى حزيناً ، وكانت أشد حزناً منه على الحارث ، وخفق قلبها خوفاً عليه أن يؤذوه أو يقتلوه ، وأخذ شيبوب مكانه فوق الجبل يرمى بنباله كل من رام الصعود إليه ، حتى أيأسهم منه وفكروا فى مغادرة هذا المكان ، ولكن الخيثعور أشار على أبى لبنى أن يصلبوا الحارث ويعلنوا شيبوباً أنه إذا لم يسلمهم لبنى بنتهم قتلوا الحارث ، وعكفوا على حصاره حتى يستسلم كرها .

فقال أبو لبنى :

افعل ما تختار .

أمر الخيثعور فشدوا الحارث إلى جانب مضربه ، وجعلوا عبدين فى ذيل الجبل يرصدان شيبوباً ، وباتوا ينتظرون الصباح . وكانت لبنى قد بدا جزعها على الحارث فأضربت عن الطعام واستسلمت إلى حزن أليم ، فوعدها شيبوب أن يعمل على خلاص الحارث من أيديهم فى تلك الليلة ، وخفف عنها بوعده هذا حزنها .

وفى الهزيع الثانى من الليل استل خنجره ونزل إلى أسفل الجبل خفية ، فوجد العبدين اللذين يرصدانه غارقين فى النوم فدنا منهما وذبحهما ، واستمر فى سيره خفية حتى كان بين أخبية الأعداء وهم نائمون ، وجعل

يبحث عن الحارث إلى أن وجده ، ففك وثاقه وعرفه بنفسه وأمره أن يتبعه خفية ، بعد أن ذبح عشرة عبيد كانوا قد وكل إليهم أمر حراسته ، حتى كانا فى أسفل الجبل ، ثم حمله شيبوب وصعد به إلى السقيفة ، فاستقبلته لبنى فرحة ، وجاءت بالطعام فأكلوا ثم ناموا إلى الصباح .

٥

وجد الخيثعور أن الحارث قد أفلت ، وحراسه قد ذبحوا ، والعبدين اللذين كانا فى أسفل الجبل قد نحرا ، وأيقن أنه ما فعل هذا إلا شيبوب ، فاتفقوا على أن يصعدوا إليه ،ولكن شيبوباً أعجزهم إذ قعد لهم يرميهم بالنبال ، ويلقى عليهم الحارث الحجارة والصخور ، حتى فنى منهم كثير من الرجال ، وعدلوا عن الصعود إلى السقيفة ، وقال الخيثعور :

لقد اهتديت إلى رأى سديد ، فإنى أعتقد أن شيبوباً سينزل إلينا فى تلك الليلة بعد أن يستولى علينا سلطان النوم ، ليسرق منا أسهماً يدافع بها عن نفسه ، ولهذا فإنى أوصيكم أن تكونوا يقظين حذرين ، لا تذوقوا النوم ليلتكم هذه ، فإذا رأيتموه فأمسكوه ، واحذروا أن يفلت من أيديكم فإنه يسبق الريح العاصف وليس لدينا جواد يدركه .

فرغت نبال شيبوب فارتقب الليل لينزل إلى أعدائه فى ظلامه ويأخذ ما تناله منهم يده، ولما جاء الليل استل خنجره ونزل إليهم وهو لا يدرى أنهم يرتقبون مجيئه فى يقظة وحذر ، فما إن رأوه حتى هجموا عليه وأحاطوا به ، وما استطاع أن يفلت من بينهم ، وإن كان قد قتل بعضهم بخنجره ، فأمسكوه وذهبوا به إلى الخيثعور ، فابتسم لمرآه وقال له :

كبا بك حظك أيها الشيطان ، ووقعت فى يد من لا يرحمك ، وسأذيقك العذاب ألواناً ، ثم أمر رجالا أن يصعدوا إلى السقيفة ، فذهبوا إليها ، وهناك ذهب دفاع الحارث عن نفسه ولبنى سدى ، وقبضوا عليه ، وتقدم أبو لبنى إليها وأمسك ذوائبها وهم أن يذبحها ولكن الخيثعور حال بينه وبينها قائلا :

لن يمسها أحد بسوء ، فإنها زوجتى وقد أعطيتك مهرها ، وسأصلب الحارث فى ديارنا بعد عودتنا ، وبذلك أكون قد قطعت أملها فيه .

ثم شدوا رحالهم فى الصباح ومعهم الحارث موثقاً ، ولبنى ، ووكلوا حراسة شيبوب إلى عبد من عبيدهم فأوصوه ألا يغفل عنه حتى لا يهرب .

ولقيهم فى طريقهم أويس بن السعلاء والسلالون بخيول بنى عبس ، فطمع بنو زهران فيهم ، وأمر الخيثعور أن يغيروا عليهم وينهبوا ما معهم ، فصدعوا بأمره ، وأعملوا فيهم سيوفهم ، وقتلوا منهم من قتلوا ، وفر أويس وعشرة من رجاله على خيلهم مسرعين إلى ديارهم ، وشغل العبد الذى

يحرس شيبوباً بهذا القتال فهرب منه شيبوب وطار فى الفلاة ، وتبعه فرسان على خيلهم ، وكانت يداه موثقتين إلى ظهره ، فعاقه ذلك عن سرعته ، وما كاد يلحقه اليأس من الهرب حتى لقيه عنترة ، فصد عنه خيل الأعداء بعد أن قتل منهم ستة عشر فارساً ، ثم سأله عن أسر الحارث وسببه فحكى له ما جرى .

* * *

لم يغفل الخيثعور أمر شيبوب ، فبعد أن شرد اللصوص ، جد فى طلبه وجيشه معه ، فالتقى بهم عنترة ، وهوى على الخيثعور بسيفه فجعله نصفين ، وجعل يحصد فرسانه حصداً ، حتى أفزعهم ، وصدع بنيان جماعتهم ، فاعتصموا بالفرار ، وتشتتوا فى القفار ، ونجّى عنترةُ الحارثَ وفتاته لبنى من أيديهم ، فسر الحارث سروراً عظيماً ، وقال :

لا زلت لنا أخاً وفيًّا ونصيراً .

ولما أقبل عروة أخبروه بما فعل عنترة ، ففرح بنصره ، وباتوا ليلتهم فى هذا المكان ، ثم استأنفوا المسير فى الصباح عائدين إلى الديار .

ولما لاحت لهم أرض الشربة ، رفع عنترة رأسه إلى السماء وقال :

اللهم إنى أسألك بحق البيت الحرام أن تيسر لى أمرى ، وتجمع بين عبلة وبينى .

فتأثر الحارث وقال :

سأرجو أبي أن يعمل على التعجيل بزواجك ، فقد طال صبرك .

فقال عنترة :

قد وكلت أمرى إلى رب البيت ، وسأستعين به وأصبر ، حتى يقضى بالحق وهو خير الحاكمين .

واستمروا سائرين حتى غدير ذات الأرصاد، وهناك أشار الحارث على عنترة أن يرسل شيبوبا ليبشر أهله بعودتهم سالمين ، ولكنه لم يلبث أن ارتد إليهم فى قلق مريب ، فسأله عنترة :

ما وراءك ؟ !

فقال :

رأيت الفرسان تملأ البرارى ، وعلى أهبة القتال ، فسألت عن ذلك ، فقيل : إن الملك زهيرا خرج فى جماعة من سادات قومه ، لاستقبال أسيد أخيه ، فلقيهم بعض الفرسان فأسروهم ، وهؤلاء بنو عبس خارجون لاقتفاء آثارهم ، فى وادى الظباء وتلال الأراك .

فأرسل عنترة الحارث ولبنى إلى الديار ، وعرج هو ومن معه إلى هذا الوادى وتلك التلال .

٦

افتقد زهير ابنه الحارث ، فبعث عبيده وفرسانه يبحثون عنه فى الأحياء والأقطار ، وبينما هو فى غم من فقد ابنه ، وقلق من انتظار عودته ، إذ جاءه البشير يخبره بقدوم أسيد أخيه .

وكان أسيد هذا من المتبتلين فى الجاهلية ، طلق الحياة الدنيا ، وعكف على العبادة وملازمة البيت الحرام ، وهو إلى ذلك ذرب اللسان ، طاهر السيرة ، نقى السريرة ، وقد اعتاد أن يزور أخاه زهيرا كل عام مرة ، فيقيم مدة بين قومه ، يذكرهم ويعظهم ، فيقبل العرب عليه ، ويستجيبون لعظته ، ويطيعون نصحه ، فخرج زهير للقائه فى ثلاثين فارساً ، وجماعة من أهله وخلانه ، فمروا وهم راجعون بأرض يقال لها تلال الأراك ، وهى غزيرة المياه ، كثيرة الأشجار والنبات ، يتوسطها شجرة بان ممتدة الأغصان ، يرجع عهدها إلى قديم الزمان ، فقصدها أسيد واحتضنها ، مبدياً أسفه وتحسره ، فعجب زهير أن رأى أخاه المتبتل العاقل يفعل مثل ذلك ، وظن أن لهذه الشجرة سرًّا غريباً ، أو حادثاً عجيباً دفعه إلى فعل ما فعل، فسأله عن هذه الشجرة، فقال :

أردت أنا وأبى أن نطهر بالحج أنفسنا ، فذهبنا إلى بيت الله الحرام ، وأدينا مناسكنا على أحسن حال ، فعبرنا هذا المكان ونحن عائدون ، فاستهوتنى كثرة ظبائه ووحوشه ، وما أستمتع به من شباب وفتوة ، وغرام بالصيد وفنونه — استهوانى كل أولئك إلى البقاء فيه ، لألحق أبى بصيد سمين ، فلبثت أبتغى ظبية أو صيداً هنا وهناك فلم أعد بطائل ، وكلما حفزنى الأمل واجتهدت ، تحامل علىّ الإخفاق والفشل ، وما زلت أجدّ وأفشل حتى قسا الحر ، وألح الظمأ ، وأخذ منى التعب مأخذه ، فرجعت بجوادى إلى هذه الشجرة ، نستنشق نسيم الراحة فى ظلالها الوارفة ، فوجدت عندها شيخاً كبيراً ، يرعى غنما وإبلا وبجانبه فتاة جميلة ، فسلمت عليه وجلست ، ثم سألنى عن شأنى ، فحدثته بما كان منى ، فابتسم الشيخ ابتسامة طويلة تنم عن خبرة بالحياة ، وطبائع الأيام ، وقال :

لعل فى ذلك خيراً له موعده ، فانزل منا على الرحب والسعة ، حتى تستريح ويستريح جوادك .

فانشرح صدرى لهذا الشيخ ولقائه ، ثم هممت بالنزول إلى الغدير لأشرب وأسقى جوادى ، فأبى على الشيخ وأمر ابنته أن تحلب الناقة الحلساء ، وتأتينى بلبنها ، فحلبتها وسقتنى ، وكأنما صبت فى قلبى حبًّا لها وشغفاً بها ، ثم أمرها أن تسقى الجواد ففعلت ، ثم قدّمت لى

ما عندها من طعام فأكلت ، كل أولئك وأبوها يؤنسنى بحديثه ، حتى تهلل وجهى فرحاً وبشراً ، فذهبت عنى وقدة الجو ، وتعب الصيد ، ثم عرضت عليه زواجى من ابنته ، فابتسم قائلا :

نحن فقراء ، وبنات الفقراء لا سوق لهن لدى الأغنياء .

فقلت :

ذلك ما لا وجود له فى رءوس العقلاء ، فرأس مال البنت فى ذلك خلقها وعقلها ثم جمالها ، وقد رأيت فى ابنتك من ذلك الحظ الأوفى ، أما الفقر والغنى فلرب الكعبة ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر .

فافتر ثغر الشيخ عن ابتسامة مشرقة ، لمحت صداها فى وجه ابنته ، ثم قال :

أما من ناحيتنا فنحن سعداء بك ، وبالرفاء والبنين ، ثم نهضنا وصحبته إلى قومه ، وهناك تم الزواج ، وأقمت معهم فى نعيم به ثلاثة أيام ، ثم استأذنتهم فى الرحيل ، لأرجع إليهم بالمال الوفير .

ولما قدمت على أبى سألنى عن غيبتى ، فأخفيت عنه أمرى ، وقلت :

شغلنى الصيد والقنص . وبعد أيام أنفذت إليهم بعض العبيد يحملون المنح والهدايا ، ليأتونى بزوجى ، وبعد غيبة مريرة ، رجع العبيد ومعهم ما كانوا قد حملوا من الهدايا والمنح ، وقالوا :

لم نجد فى مساكن القوم إلا آثاراً وأطلالا ، ولم نعثر إلا على رجل مجروح متهالك القوى ، فسألناه عن أهل هذه الديار ، فقال : أغار عليهم جماعة من اليمن ، فشردوهم عن أوطانهم ، وسبوا نساءهم ، وغنموا أموالهم . فطويت صدرى على مصيبتى ، وجعلت أبعث البعوث من العبيد سرًّا ، يبحثون عنها فى جهات الأرض ، فلم أقف لها على خبر أو أثر ، ففقدت دنياى بفقدها ، وهذا سبب هجرتى الأوطان ، وعكوفى بالبيت الحرام ، ولكنى كلما مررت بهذه الشجرة ، نبهت فى صدرى راقد الأسى ، فلجأت إليها واحتضنتها ، عسى أن يكون لى فى ذلك بعض السلو المريح ، وأرى من الإحسان إلى أخيك ، أن تمكث هنا حتّى يقبل النهار ، ثم نستأنف المسير إلى الديار .

فقال زهير :

لا بأس فى ذلك .

وكان جماعة من فرسان زهير ، قد ذهبوا فى أثناء ذلك إلى الصيد ، فرجعوا ومعهم كثير من الظباء وغيرها ، فذبحوا وشووا ، ثم أكلوا وشربوا ، ثم أخذهم نوم ثقيل ، فمر بهم وهم نائمون فرسان من بنى قحطان كانوا قد خرجوا للإغارة والغنيمة ، فحملوهم جميعهم أسرى وهم نائمون ، وحملوا أموالهم ، وساقوا خيولهم ، وقصدوا بهم وبأموالهم إلى ديارهم . وكان قد نجا من الأسر من أولاد زهير ثلاثة : زنباع ، وورقاء ، وعلاثة ، فانطلقوا

إلى بنى عبس ، وأخبروهم بما كان ، واستنفروهم لإنقاذ زهير ومن معه ، وكان عنترة إذ ذاك قد وصل من أرض العراق ، ولما بلـّغه أخوه شيبوب ، انفلت إلى تلال الأراك ، ليكون مع بنى عبس فى استخلاص ملكهم .

٧

حمل بنو قحطان زهيرا ومن معه ، وساروا بهم وبخيلهم إلى ديارهم ، ولما أجهدهم المسير ، وكربهم حر الهجير ، نزلوا فى غدير يسمى ذا الجرع ، ولما انتبه زهير ورجاله وجدوا أنفسهم أسرى ، فدارت أعينهم فى رءوسهم جزعاً وغمـًّا ، وقال زهير ناقماً : كيف فعلتم فعلتكم هذه الأثيمة ، ولم تحسبوا لها عاقبة أليمة ، لا طاقة لكم بها ؟ ! أليس فيكم من يعلم أننى ملك بنى عبس ، الذين عرفوا بعزة النفس وقوة البأس ؟ ! ارجعوا إلى رشدكم ، وادفعوا عن أنفسكم شرًّا ينتظركم إلا إذا أخليتم سبيلنا ، وإن طمعتم فى مال فدونكم ما تريدون .

فلما سمع نازح زعيم العصبة المغيرة قول زهير ، أشرق وجهه بشراً ، ورفع يديه إلى السماء قائلا : هدانا رب البيت لهذا .

فقال زهير : وأية هداية تريد ؟ !

فقال نازح : ما كنت أعلم أنكم أنتم إلا فى هذه الساعة ، فحمدت لله تيسيره أمرى ، بوقوعكم فى يدى .

فقال زهير : ومن يدرى ؟ ! ربما كان شقوة وتعسيراً .

فقال نازح :

لا عسر اليوم ولا شقوة ، فقد قضى الأمر على خير ما أبغى .

فقال زهير : وما أمرك هذا ؟

فقال نازح :

إن لى مولى يدعى عباد بن تميم ، نشأت يتيماً فى نعمته ، وشببت عزيزاً بهمته ونخوته ، حتى أصبحتُ فارساً لا يطاول ، وبطلا لا يسامى ، وكانت ابنته سمية ذات جمال فاتن ، وجاذبية ساحرة ، فافتتنت بها ، وخضت الأهوال من أجلها ، وغنمت لأبيها مالا كثيراً ، وجواهر سنية ، فأصبحت فى نفسه بمنزلة الولد من أبيه ، ولكنى لم أطلعه على ما فى صدرى لابنته من حب عظيم ، كما لم أطلع على سره أحداً إلا أمى سلمى ، التى أشفقت علىّ وأرشدتنى إلى السبيل الذى يوصلنى إلى غايتى ، ويجمع بالزواج بينى وبين سمية ، فقالت :

إن لمولاك عباد ثأراً عند بنى عبس ، فإن أنت ثأرت له منهم زوجك ابنته ، وكنت لديه أعز من نفسه ؛ والآن قد قيضكم الله لى ومكننى منكم ، فلا منجاة لكم ولا مفر !

ثم أمر نازح فرسانه المائة أن يستأنفوا رحيلهم ، ويجدوا فى سيرهم إلى مولاهم عباد بن تميم ، فاستيئس زهير ومن معه ، وأيقنوا أنهم قد

انقطعوا عن أهلهم ورجالهم ، وأنهم كما يبدو لهم غير ناجين .

وبينما هم يفكرون فى أمرهم ، إذا بغبار على جانب الطريق ، ينشق عن خمسين فارساً كأنهم مردة الشياطين ، يقدمهم فارس كأنه الأسد فى جرأته وهمهمته ، وبجانبه رجل كأنه العقاب فى سرعته ويقظته ، وكان ذلك الفارس عنترة ، وهذا الرجل شيبوباً ، وهؤلاء الفرسان من بنى عبس .

عجب نازح إذ رأى عنترة فى فرسانه قد طلع عليهم بغتة ، وما كان يظن أنه قد علم بأمر زهير ورجاله أحد ، ولكنه قال لرائده ودليله :

هؤلاء خمسون فارساً ، ونحن مائة فارس ، ولعل القدر ساقهم إلينا ، لنقطع حبال آجالهم بأيدينا وسيوفنا .

فقال الرائد :

ليس الأمر كما تظن وتقدر ، فقد ضاع الأمل ، وبؤنا بالخيبة والفشل ، إن أنت ناوأتهم أو وقفت فى سبيلهم ؛ وخير لك أن تطلق أسراهم ، حتى نكون فى منجاة من سيوفهم .

أما اهتداؤهم إلينا فلا أرى فيه عجباً ، وذلك أن لعنترة أخاً لأمه يدعى شيبوباً ، نشأ فى بنى جديلة باليمن ، ولما أغار بنو عبس عليهم ونالوا منهم كثيراً من المغانم والأسرى ، كانت زبيبة وأولادها ممن أسر ، كما كانت من نصيب شداد بن قراد عند القسمة ، فرزق منها عنترة ، الذى جعل له بشجاعته وجوداً بارزاً فى كل حى ، وذكر خالداً فى كل

قبيلة ، وهو ذلك الفارس الذى تراه — وأشار إليه — وأما أخوه شيبوب فهو أعلم العرب بالأحياء والبطون ، والأفخاذ والقبائل ، وشعاب الجبال ، ومسالك الصحراء ، وهو ذلك النمر الذى تراه بجانب عنترة ، وإنى أنصح لك بالمسالمة ، حتى تنجو بنا من تلك التهلكة .

فقال نازح : وقد تلظت فى صدره نار الحمية :

كيف أكون فى مائة فارس ، وأخشى قتال عنترة وعصبته ؟ ! إن كنت نسيت مواقفى المشهودة فى صنعاء وعدن ، فستعرف الآن ما أفعله بهذا العبد الأسود .

ثم التفت إلى فرسانه ، وأمرهم ألا يشهروا سيفاً ، أو يصوبوا رمحاً ، حتى يقضى على عنترة ؛ ثم برز على جواده ، منادياً :

أين عنترة لأسقيه كأس المنون جرعة واحدة ؟ !

فأسرع إليه عنترة قائلا :

أنا عنترة الذى جاء ليدك جسمك دكة واحدة .

ثم رفع رمحه وضربه بزجه ، فألقاه على الأرض كالمغشى عليه ، فانطلق شيبوب انطلاق السهم ، وأوثق كتاف يديه ، ثم حمل عنترة على فرسانه ، فبطش بهم بطشة الكبرى ، فإذا هم بين مقتول وهارب ، وإذ ذاك أقبل على الملك زهير ورجاله ، فحل وثاقهم ، وسرى عنهم ما كان جاثماً على صدورهم من يأس وحزن ، فشكروا له جزيل معروفه ،



عنترة على جواده وقد ضرب نازحا بزج رمحه وألقاه على الأرض

وقص عليه زهير قصة أسره ، ثم سأله عن سبب مجيئه ، وكيف علم بأسره ، فقص عليه قصة عودته من الحيرة ، وكيف سرقت الخيل ، وكيف خلص من الأسر الحارث ابنه وشيبوباً ، وازداد زهير سروراً بعودة ابنه ، الذى كان قد أيس من لقائه ، وقال :

لا زالت بنو عبس فى عزة بك يابن الكرام ، فأنت ملاذها ، إذا بهرتها الشدائد ، وكربتها الخطوب .

ثم استشاره فى العودة ، وما يفعله بالأسرى من أعدائهم ، فقال عنترة :

لا سبيل إلى الرجوع ، حتى نقتل هؤلاء الأسرى ، وبذلك يقبر الحادث فلا تشمت بنا الأعداء ، ثم أمر عروة أن يأتى بالأسرى ، فجىء بهم ، يقدمهم نازح فى قبضة شيبوب ، فجرده من ثيابه ، فانكشفت عن معضاد فى ذراعه من العقيق الأصفر ، نقش عليه صورة صنمين بالذهب الأحمر ، فلما لمحه أسيد أخو زهير فى ذراعه ، ابتدره على عجل ونزعه ، وأخذ يقلبه فى كفه ويقبله فى أنين وحسرة ، ثم قال :

اصدقنى الحديث قبل نزول القضاء ، فلعل الصدق ينجيك من البلاء! من أين لك هذا المعضاد ؟

فقال نازح :

أهدته إلىّ أمى سلمى ! !

فعرته الدهشة ، عند ما سمع اسم سلمى يدوى فى أذنه ، ثم سأله عن

حسبه ونسبه وقبيلته ، فقال :

لا أعرف لى نسباً ولا حسباً ولا قبيلة ، ولكنى ربيت يتيما فى كفالة مولاى عباد بن تميم ، وجعل يقص قصصه من نشأته ، إلى شكاته لأمه سلمى ، محبته لسمية بنت مولاه عباد ، ومشورتها عليه أن يثأر له من بنى عبس ، ثم قال :

ولما كان لكم من الشجاعة والقوة ما جعل الناس يخشونكم ، ويهابون الإغارة عليكم ، قلت لأمى :

وما دام بنو عبس على هذه الحال من القوة ، فلن أجد فارساً يصحبنى إليهم .

فقالت : إنك واجد كثيراً ممن يطمعون فى المغانم ، وإذا كنت أنت فى خشية منهم فخذ هذا المعضاد معك ، ففيه أسماء عظيمة لمن خلق الأرض والسماء ، وجعل الظلمات والنور ، والظل والحرور ، فبسببه تحفظ من كل شى ، وقد منحنى إياه والدك ، ووصانى به والمحافظة عليه .

قال نازح :

فأخذته من أمى ، وربطته على ذراعى ، وقصدتكم فى مائةفارس ، فلما وصلنا إلى تلال الأراك ، وجدناكم غارقين فى النوم تحت شجرة البان ، فجئنا بكم ، وكان ما رأيتم وعلمتم ، حتى وقعت فى أيديكم ، وقد فوضت بعد ذلك أمرى إليكم ، فافعلوا ما تشاءون .

وما كاد نازح ينتهى من قوله ، حتى ضمه أسيد إلى صدره ، وعيناه غارقتان فى دموعهما ، ثم قال :

إنك ابنى ، وفلذة كبدى ، وأنا الذى أعطيت أمك هذا المعضاد ، وإنك واجد اسمى قد كتب عليه ، وما أعطتك أمك إياه ، وحفزتك إلى الإغارة على بنى عبس ، إلا لتكشف الخبر ، وتصل ما انقطع .

ثم التفت إلى أخيه زهير وقال :

لقد أقبل الزمان علينا بعد أن أدبر ، ودلنا على أم هذا الغلام ، التى كنت أذكرها إذا ما مررت بشجرة البان ، غير مرتقب لها وجوداً ، ولا راج لها لقاء !

فلما رأى عنترة ذلك حل وثاق نازح وقبل وجهه ، وفرح نازح بأبيه وعمه ، وأصبح من سادة بنى عبس ، ثم أطلقوا الأسرى ورجعوا إلى ديارهم ، وفى الطريق قال نازح لأبيه :

ماذا أنت عازم فى أمر أمى ، وهى الآن على أحر من الجمر فى انتظارى ، وإذا انكشف لعباد حقيقة أمرها وأمرى قضى عليها لساعته .

فقال أبوه :

بعد العودة إلى الديار سأعمل على مجىء أمك ، وزواجك من سمية بنت عباد ، حتى تكون سعيداً بأمك وزوجك ، كما سعد أبوك بلقائك .

فقال نازح : كتب لك كل توفيق وسعادة .

ولما وصلوا إلى تلال الأراك ، التقوا ببنى عبس الذين خرجوا إلى زهير لنصرته ، واستخلاصه من قيود أسره ، وفيهم الربيع بن زياد ، وباتوا جميعهم فى ذلك المكان فرحين مبتهجين ، وذاع فى بنى عبس ما فعله عنترة فزاد فيهم إعزازاً ومحبة ، وأقدم الربيع على شكره وتهنئته ، وصدره يضطرم حقداً عليه وحسداً .

ولما كان الصباح ، قال أسيد لأخيه :

لا يطمئن لى قلب أن أعود إلى الأحياء ، حتى تكون معى سلمى زوجتى ، ومع ابنى سمية بنت عباد التى رغب فى زواجها .

فقال زهير : متى وصلنا إلى الديار عدت فى فرسانى معك إلى بلاد اليمن ، لتحقيق ما تريد .

فقال عنترة : ومن أهلك عاداً وثمود ، لأذهبن إلى اليمن وحدى ، على رأس مائة من فرسانى .

فقال الربيع : لا زلت لنا ملجأ وحامياً ، وأحب أن أكون معك ، يؤازرنى إخوتى ، لنبذل مهجنا دونك .

فلم يغب عن عنترة مكر الربيع ومحاله ، فأقسم لا يصحبه فى سفرته إلى بلاد اليمن إلا عروة بن الورد ورجاله .

وقال زهير : لا تطيب نفوسنا إلا إذا زودناك بألفى فارس .

فقال عنترة : لئن رضيت بذلك فإنما هو لاطمئنانكم ، أما بلاد

اليمن فلا أحتاج فيها إلى هذا العدد الوفير ، ولكنى أود أن أرجئ غزوتى ، حتى يدخل مولاى الحارث بزوجه لبنى .

فوافق ذلك رغبة فى نفوسهم ، وأقاموا فى ديارهم سبعة أيام كلها فرح وبهجة ، بعودة المليك وزواج ابنه الحارث ، وبعدها أخذ عنترة يعد العدة لغزو بلاد اليمن ، فسار عنترة وأبوه شداد ، وعمه زخمة الجواد ، وأسيد وابنه نازح ، فى ثلثمائة من بنى قراد وعروة ابن الورد ورجاله ولندعهم الآن فى سيرهم ، لنقص ما جرى من الحوادث فى غيبتهم ، ثم نعود إليهم .

٨

لم تمض ثلاثة أيام على مغادرة عنترة أحياءه إلى بلاد اليمن حتى جاء الملك زهيرا رسول النعمان ، يحمل إليه نفائس الهدايا ، من أقمشة حريرية وثياب سندسية ، ولآلىء سنية ، ونوق عصفورية ، فأحسن زهير وفادته ، وأكرم ضيافته ، وسأله عن النعمان وأحواله ، فقال :

سلطان شامل ، وعز كامل ، وغنى طائل ، وترف حافل ، ويرجو أن تبعث إليه ابنتك الكريمة ، لتكمل سعادته بزوجه ، وينعم بعشرتها فى أيامك السعيدة .

فقال زهير :

بسط الله ملكه ، وأدام مجده ، وسنعمل فى الغد لإيفاد زوجه إليه .

وفى ذلك الوقت بعث الأسود أخو النعمان فى طلب مارية بنت حذيفة ابن بدر إليه ، ففرح بنو فزارة ، وقامت ألوان الفرح فيهم سبعة أيام ، وكان الملك زهير قد اتفق هو وحذيفة ، على أن تسافر العروسان إلى الحيرة معاً .

وفى اليوم الثامن ركب حذيفة فى مائة وخمسين من رجاله ، ليكونوا فى ركب ابنته مارية ، وأما زهير فقد اكتفى بسفر شاس ابنه مع ابنته .

وهناك استقبلت العروسان بما يليق بهما وبأبويهما وزوجيهما من الحفاوة والإجلال ، فالمدينة تموج بالناس من كل حدب ، وتتوثب من الفرح والطرب ، ودخلت المتجردة قصر النعمان وهو يعج بالجوارى والغلمان ، ويفيض بالبهاء والجلال ، كما دخلت مارية قصر الأسود ، وقد لبس أثواباً من الفرح ، فى ألوان الزهر وأفواف الوشى .

وبعد عشرة أيام أقامها شاس وحذيفة ، فى ظلال الترف ، وكرم الحفاوة ، رغبا فى العودة ، فأمر النعمان أن تحمل الناقة التى حملت إليه زوجه أغلى صنوف العطر ، من مسك أذفر ، وند وعنبر ، وأن تطيب به مضارب بنى عبس وخيامهم ، حتى ينعم بأريجه خاصتهم وعامتهم ، وأمر النعمان أن يصحب شاساً إلى دياره مائة فارس ، فأبى شاس قائلاً :

كيف أكون صهر النعمان ، وابن زهير ، وقومى بنو عبس ، ثم أكون فى حاجة إلى من يحرسنى فى طريقى ؟ !

وسار حذيفة بن بدر فى رجاله، وصحبهم شاس ومولاه سالم إلى الديار، فجعل حذيفة يتحدث عن الأسود صهره، مغالياً فى مدحه، كأنه يفتخر على شاس، فخشى شاس أن يجر هذا إلى المفاخرة، فتنتقل من اللسان إلى السنان، فانقطع عن الركب، متعللا بالصيد والقنص، فحقق بذلك رغبة فى نفس حذيفة، إذ كان يود أن لو سار شاس وحده، عسى أن يلقاه من يقتله، إذ كان ينقم منه محبته لعنترة وتشيعه له، ولهذا جد فى المسير، غير عابئ بتخلف شاس وسالم مولاه.

* * *

وصل شاس إلى أرض بنى عامر، فعرج على منهل فيها، ليطفئ عطشه، وكان قد نصب شراكه فى هذا المكان صياد أحمق، يقال له ثعلبة الأعرج، وكمن منتظراً أن تعلق بظبى أو وحش، ولكن الظباء والوحوش جفلت عند ما أحست قدوم شاس ومولاه، فصاح ثعلبة غاضباً:

من هذا الذى أجفل الظباء والوحوش، وحال بينى وبين ما أبتغى من رزق؟!

فأجابه شاس: سأخلف عليك ما فاتك، وائتنى بشربة ماء.

فقال ثعلبة: عجباً لك! ما أحمقك!! تستنفر رزقى، وتطمع فى كرمى!! دونك الغدير، فاغترف منه ما تريد.

فقال شاس غاضباً:

يبدو لى أنك فقير مالاً وعقلاً ونخوة، ولو لم تكن كذلك لعجلت إليك أجلك.

فعصفت فى رأس الصياد حماقته، ومكن سهماً من قوسه، ورمى شاساً فى صدره، فأرداه قتيلاً؛ ففر سالم فزعاً، حتى لا يصيبه ما أصاب مولاه، ثم دنا الصياد من شاس فرآه فى زى الملوك، فندم وتحسر، وخشى أن يتوانى فى إخفاء جريمته، فيفتضح أمره، ويكون هلاكه، فوارى جثة شاس الرمال، وأسرع بجواده وناقته وسلبه إلى داره، تحت أستار الظلام، وهناك أخبر زوجه بقصته، وحذرها أن تبوح لمخلوق بها، وذبح الناقة، وأخفى الطيب، وباع الجواد فى مكان بعيد.

وبلغ زهيرا قدوم حذيفة، وتخلف شاس ابنه، فثار القلق فى صدره، ولكنه ظن أن النعمان استبقاه حيناً عنده، فسكت عنه القلق حتى قدم سالم مولى ابنه، فقص عليه ما جرى لشاس فى ديار بنى عامر، وذاع فى بنى عبس نبأ قتله، فغرقوا فى حزن أليم.

وبعد ثلاثة أيام من ذلك النبأ المحزن، خرج زهير فى ألفى فارس، وصحبه الربيع بن زياد إلى ديار بنى عامر، وهناك استقبله غشم بن مالك، فى جماعة من فرسان المعارك، فحيا زهيرا وقبل يديه وقال:

لعلكم قدمتم ديارنا للصيد، فنحظى حيناً من الدهر بمقامكم الكريم.

فقال زهير:

لم تبعد فيما ظننت من مقصدنا، ولكن لصيد الأنفس منكم، وقطع دابر كل ذى حس فيكم.

فقال غشم :

وما الذى قطع بيننا أسباب المودة الموصولة ؟ !

فقال زهير : قتل ابنى شاس فى هذه البقعة ، وهو راجع إلينا من الحيرة .

فقال غشم :

ومن أنبأك هذا ؟

فقال زهير :

أنبأنى سالم مولاه .

فقال غشم : أرى الخبر يعوزه التثبت ، إذ نقله فرد واحد ، وهو إلى ذلك خادم وعبد، وهبه صادقاً فى خبره ، فشل الملك زهير لا يرضى أن يأخذ البرىء بالأثيم، وهذه البقعة مفتوحة لكل طارق ، غير ممنوعة عن أى سالك، ومن الجائز أن يكون قد قتل ابنك غريب عابر، ومن الحق ألا تؤاخذ الأبرياء منا بما فعله الغرباء عنا ، فلا تجعل سيفك يصيب مظلوماً ، ويقهر ضعيفاً ، ويقطع إخاء موصولا .

فكان لهذا القول فى نفس زهير لمعة نور من الحق ، وخشى أن يجره البغى الأثيم، إلى سوء المصير ، فقفل بجيشه راجعاً .

٩

اطمأن زهير بين قومه ، اطمئناناً يكبته الألم ، ويكربه الغيظ والحزن حتى يبدو له وجه الحيلة فى معرفة من قتل ابنه ، ولكن قيس بن زهير لم ينم ، فحمل ناقتين سمناً ودقيقاً وتمراً ، وأحضر عجوزاً شمطاء ، لها من مرور السنين خبرة ، ومن طول الأجل دهاء وحنكة ، وقال لها : إنما الرسول بعقله وحكمته ، فاذهبى بهاتين الناقتين المحملتين شحماً ودقيقاً إلى ديار بنى عامر ، وطوفى بهما بين الحلل والعشائر ، وأظهرى أن عندك بنتاً وأنك ترغبين فى زواجها ، وانتسبى إلى غير بنى عبس ، ولا تبيعيه إلا بطيب نفاح الرائحة . واسألى : من أين جىء به ؟ ولعلك بعد هذا تعرفين شيئاً مما نريده .

سارت العجوز بالناقتين ومعها رجال يحرسونها ، فلما قربت من بنى عامر رجع الرجال وانفلتت العجوز بناقتيها تطوف بين الحلل والمضارب ، واجتمعت النساء حولها ، وكانت سنة قحط وجدب ، وأراد القدر أن تكون زوجة الصياد ثعلبة بن الأعرج فى حاجة إلى الزاد ، لتطعم أولادها الذين يتضورون جوعاً ، فجاءتها والنساء من حولها يعرضن عليها طيباً وهى لا ترضى به وتقول :

أريد خيراً منه .

فقالت لها زوجة الصياد :

يا خالتى ! إن عندى حاجتك ، فتعالى معى إلى بيتى ، وستجدين ما تطلبين .

فقامت العجوز وسارت معها وهى تقول :

ما تفعلينه فى هذه البنية اليتيمة يكون ذخراً لك عند ربك .

فقالت : سترين كل خير يا خالتى ، فإن عندى نوعاً من الطيب لا تجدينه إلا عند الأكابر من الملوك ، ولكنى لن أعطيك شيئاً من هذا الطيب حتى تخبرينى من أى القبائل أنت ؟

فقالت العجوز : يا سيدتى : أنا من بنى دودان ، ولكنى لا أفهم غرضاً ولا معنى لما تقولين .

فقالت زوجة الصياد : اسمعى يا خالة ؛ إن زوجى صياد ، يقال له ثعلبة بن الأعرج ، وقد آتاه الله من الرزق على فقره ما لم يؤته لأحد ؛ فقد كان يصطاد فى ليلة من الليالى فمر به غلام من بنى عبس يقال له شاس بن الملك زهير ، فنفر صيده ، فرماه بسهمه ، فأخطأ السهم الصيد ، ولكنه أصاب شاساً فقتله ؛ وكان معه عبد هرب وتركه ، فنهض إلى شاس ودفنه وأخذ جواده وناقته ؛ وكانت تحمل هذا النوع من الطيب الذى حدثتك عنه ؛ أما الناقة فإنه ذبحها ووزع لحمها على

الفقراء والمساكين ، وأخذ الجواد والعدد ليبيعها فى بلاد اليمن ثم يرجع فى أقرب زمن ، ولن أدعك تسيرين من عندى حتى تحلفى لى أنك لا تخبرين أحداً بهذا الخبر .

فقالت العجوز :

اطمئنى يا سيدتى فإنى لا أعرف فى العرب قبيلة تسمى بنى عبس .

وأخذت تلهيها بشىء من الشحم والدقيق ، ثم رجعت مسرعة حتى دخلت على قيس ، وأفضت إليه بما سمعت من زوجة ثعلبة بن الأعرج .

١٠

كان الملك زهير قد أتاه حذيفة وطائفة من بنى فزارة ، يعزونه فى ابنه شاس ، فقال زهير :

ما جئتنا يا حذيفة معزياً ، ولكنك جئتنا شامتاً ، لأنه ما فرط فى ابنى أحد غيرك ، ولا قُتل إلا بسببك ، وإذا بان القاتل وظهر ، لم يكن له مفر من الموت ، مهما يبلغ فى العرب من شأو وخطر .

ففارقه حذيفة غاضباً لهذا اللقاء العنيف ، وهو يقول :

وذمة العرب لن أكون له ناصراً ومعيناً ، فإن الكِبْرَ لا يزال ينفخ فى صدره ويلوى عنقه .

لبث زهير فى مضربه حتى جاءه قيس ابنه ، وأطلعه على ما دبر ،

وما جاءت به العجوز من خبر ، فأهاب زهير ببنى عبس فجاءه أكابرهم مسرعين ، وقال لهم :

اركبوا للقتال والأخذ بالثأر ، فقد ظهر قاتل ابنى شاس فى بنى عامر .

تقدم زهير جيشه ، وجدوا فى المسير ، حتى أشرفوا على ديار بنى عامر ، وكان مع بنى عامر بنو غنى وبنو كلاب ، وكان المقدم فى بنى عامر خالد بن جعفر ، وفارسهم غشم بن مالك ، وكان المقدم فى بنى غنى الربيع بن عقيل ، وكان المقدم فى بنى كلاب ، جندج ابن البكاء ، وكان خالد بن جعفر مقدم بنى عامر رئيسهم والحاكم فيهم ، إلا أنه فى هذه الأيام كان بأرض العراق عند الأسود أخى النعمان ، لأنه كان متزوجاً من سعاد بنت أخيه الأخوص ، ولما سمع أنه تزوج من أخت حذيفة ذهب لتهنئته فى طائفة من بنى عامر ، وكان كلما أراد العودة حجزته سعاد بنت أخيه وقالت :

لا تفارقنى يا عمى حتى أعرف مصيرى ، وأعرف كيف يكون حالى .

وصل الملك زهير إلى ديار بنى عامر وكانت خالية من الأبطال والمقدمين إلا ملاعبَ الأسنة فى نفر قليل .

عرف بنو عامر بمقدم زهير وجيشه وأعوانه ، فخرجوا للقائه وألانوا له القول ، وسألوه عن عودته فى جيشه بعد أن اعتصم بالعدالة ، والبعد عن أن يأخذ بالشبهة ؛ فقص عليهم ما فعله قيس ، وما دبر من حيلة ، حتى

تبين أن القاتل ثعلبة الصياد ؛ فطلبوا ثعلبة فلم يجدوه ، فأحضروا زوجته ليسألوها ، ولما رأت أن لا مفر من الاعتراف أخبرتهم بما فعل زوجها ، فكان قولها مطابقاً لقول زهير ، فثارت ثائرته ، وخيرهم بين أمور ثلاثة ، وقال :

إن أديتم واحداً منها حقنتم دماءكم ، ودرأتم الموت عن أنفسكم ! .

فقالوا :

وما هذه الثلاثة ؟

فقال زهير : أن تبعثوا ابنى من مرقده حيًّا ، أو تسلمونى نساء بنى عامر وأطفالهم لأقتلهم فى ثأر ابنى ، أو تملئوا بردتى هذه من نجوم السماء .

فقالوا :

ما عهدناك تركب متن الشطط فى أمورك ، وتطلب المحال الذى لا طاقة لأحد به ؛ أما بعثُ ابنك حيًّا فلا يقدر عليه إلا الله وحده ؛ ولا يملك إنسان أن يحيى ميتاً ؛ وأما ملء بردتك من نجوم السماء فلن يقدر عليه أحد من البشر أيضاً لأن نجوم السماء لا سبيل إليها ، وإن أمكن الوصول إليها فإنها لا يمكن أن تجمع فى بردة ؛ وأما القتل فهو حق فى ثعلبة الصياد بن الأعرج ، وظلم فيمن عداه من نساء بنى عامر وأطفالهم ، وقد استخلفك الله فى أرضه فلا يمل ميزان العدل بين يديك ، ولا تزر وازرة وزر أخرى لديك ؛ وأما إشعال نار الحرب بيننا وبينك ، فمعاذ الله أن تفعله ،

ونحن لك غير كارهين ، والرأى عندنا أن نحمل لك عشر ديات ، وأن نكون تحت أمرك ، وأن نطلب ثعلبة بن الأعرج حيث كان ، ونأتى به إليك ، لتقضى فيه ما أنت قاض .

بدت على وجه زهير أمارات الرضا ، ولم يكن ذلك يرضى الربيع ابن زياد، لأنه لا يود لزهير راحة ولا سلماً ، فقال :

ما كان لملك أن يضع لأمته على رأسه ثم يغمد سيفه ، وما كان لنا أن نخرج بجيوشنا لنعود بخديعة خاطئة ، وما كان لنا أن ندع شاساً يقول فى غربته الأبدية :

لقد جاءنى أبى مرتين ، ثم عاد من ثأرى بخفى حنين ، فما أسرع أن ينسى الحى الميت ! ! وما أهون الميت على الحى ! ! !

فأثار الربيع بذلك فى نفس زهير حزناً ثقيلا على ولده ، وخشية العار من عودة فارغة ، فأمر جيشه أن يأخذوا بسيوفهم هذه القبائل ، وألا يدعوا فيها من فارس ولا راجل ، وقامت الحرب على أشدها وكان بنو عامر لنارها حطباً ، ولما أحس غشم أن القوم إلى فناء ، ذهب إلى زهير فى جماعة من كبار قومه فقبلوا يديه ، ثم قال :

وددنا أن تكون رمزاً لرجاء الإنسان فى الله ، ومثالا لرحمة الله بالإنسان؛ ورجاؤنا أن تمهلنا حتى نجعل قوم ثعلبة فى معزل منا ، ونسلمك إياهم لتفعل بهم ما تشاء ، ولا تؤاخذنا نحن بذنوب غيرنا .

فقال زهير :

أمهلتكم إلى صباح الغد .

وأمر أن يكف رجاله عن القتال حتى يحين الموعد .

ذهب غشم إلى القوم وأخبرهم أنه خدع زهيراً حتى هادنه إلى صباح الغد ، فعليكم أن تلوذوا بالجبال ، وتتخذوها معصماً يدرأ عنكم الفناء ، حتى يهل عليكم بالأمن والسلام ، شهر رجب الحرام بعد خمسة أيام — وكانت العرب تقدسه ، فلا تقاتل فيه ، فيلقى الرجل قاتل أبيه ، فلا يلتفت إليه ولا يؤذيه — وعسى أن يؤوب هذه الأيام من غيبته بالعراق ، خالد بن جعفر ، فيكشف عنا هذا الضر والبلاء .

فما أسرع أن صدعوا بأمره ، وكانوا هم وخيامهم وأموالهم فى معزل عن أرضهم ومقامهم ولجئوا إلى جبال كانت تشرف عليهم ، وأصبحوا يموجون فى أعاليها موج البحار .

وفى الصباح ركب زهير إليهم فى أرضهم ، فوجدهم قد ارتحلوا عنها ، واعتصموا برءوس الجبال ، فسقط فى يده ، وأيقن أن غشم بن مالك خدعه ، ولم يغنه حصارهم فى الجبال شيئاً ، ولما حل شهر رجب الحرام ، أمر زهير ابنه قيساً أن يعود بالجيش إلى الديار ، وأن يأتيه بأمه تماضر ، ليذهب زهير بها إلى البيت الحرام ، ليقطع هذه الأيام الحرام فى مكة ، ثم يعود إليهم فيأخذ ثأره منهم ، بالقضاء عليهم ، فكان

ما أمر ، ونزل زهير بزوجه فى وادى الحرم ، بالقرب من البيت المعظم .

ومن عجب أن يمر خالد بن جعفر بالبيت الحرام فى عودته من العراق ، ويذهب إليه غشم بن مالك هو وجماعة من سادات بنى عامر ، وهناك يلتقون بخالد بن جعفر ، ويخبره غشم بما فعله زهير بهم ، فقال خالد :

ويل لزهير منى ! ! ينتهز غيبتى ، ويوقع الدمار بقومى ! ! ويل له ولقومه بعد عودتى ! !

ولما كان الغد ، والتقى خالد بزهير فى أثناء الطواف بالبيت ، قال له : اغتنمت فرصة غيبتى وعصفت ببنى عامر ، وأذقتهم كأساً من ظلمك وبغيك ؟ ! !

فقال زهير : ولولا أننا نضطجع فى مراقد السكينة والسلام ، بقدوم شهر رجب الحرام ، ما أبقيت منهم أحداً ، وستلقون منى ويلا وثبوراً .

فقال خالد : وكأنك أمنت على نفسك وقومك من صروف الزمن ! ولو كنت حاضراً لكبحت بسيفى جماحك ، وستريك الأيام أينا أحسن مصيراً ، وأهدى سبيلا .

فانتفض قيس بن زهير انتفاضة غيظ وعزة ، وقال :

لو أنك نطقت بهذا الكلام فى غير هذه الأيام الحرم ، لسقيتك بسيفى كأس الحمام .

فقال خالد : الأيام بيننا .

فضحك زهير وقال :

لو كنت نائماً ما جرؤت أن توقظنى ، ولو سللت حسامى لجف ريقك فى حلقك ، ودارت عينك فى رأسك .

فالتفت خالد إلى الكعبة ، ورفع إلى السماء يديه ووجهه ، وقال :

اللهم كما رفعت قواعد هذا البيت ، وجعلته حرماً آمناً ، مكن يدى الضعيفتين من زهير ، فليس لى معين ولا ناصر سواك .

فاستقبل زهير الكعبة فى غضب عصف بعقله ورويته وهدوئه وقال :

اللهم كما جعلت البيت مثابة لمن يأتيه مكن يدىّ القويتين من عنق خالد ، ودعنى وإياه فإنى عليه قادر ولست فى حاجة منك إلى معونة ولا تمكين .

فقال من سمعه من العرب :

هلك زهير بما نطق ، إذ استطال على رب الأرباب ومنشىء الخلق .

فقال زهير :

لا تلومونى إذ جاوزت حد الأدب مع الله ، فقد غشيتنى من الغيظ سكرة يضل فيها كل عاقل لبيب ؛ ولولا ما لهذه الأيام من حرمة ، لشربت من دم هذا الوغد جرعة فى إثر جرعة .

فقال خالد :

قد وكلت أمرى إلى ربى ، وتخذته لى وليًّا ونصيراً .

ثم خف مسرعاً بمن معه من الرجال إلى الديار ، فألفى قومه لائذين بالجبال ، يندبون من فقدوا من نساء ورجال ، فواساهم وآمنهم من خوفهم وطمأنهم على مصيرهم ، ثم جمع سادات العشائر ، وأخبرهم بما كان من زهير عند البيت الحرام ، واستشارهم فى قتاله ، ومبلغ قدرتهم عليه ، حتى يمدهم بمعونة من حلفائه وأنصاره إن كانوا عاجزين عن الوقوف فى وجهه ، بعد تلك المعارك الدامية ، التى زلزلت القواعد من بنيانهم ، وأكلت كثيراً من فرسانهم ، فقالوا :

لسنا فى حاجة إلى مدد من غيرنا ، وستجد من بأسنا ما تقربه عينك وأعيننا .

وكان خالد إلى شجاعته ذا تدبير ومكيدة ، فقال لهم :

خذوا أهبتكم للقاء زهير وهو عائد من البيت الحرام ، فهو فى قلة من رجاله ، حتى إذا ما قتلناه ذهبنا إلى دياره ، فأذقنا قومه لباس الهون والذلة ، فقد بلغنى أن عنترة غائب عنهم ، وتلك فرصة قل أن تهيأ لنا بعد الآن .

خرج خالد فى خمسة آلاف فارس ، فجعلهم فرقاً ، على رأس كل فريق قائد ماهر ، وأمر كل فريق أن يسلك سبيلا غير التى يسلكها

الآخر ، على أن يكون التقاؤهم بديار بنى هوازن ، وبذلك يأخذون على زهير كل سبيل ، وجعلوا يقطعون الفيافى حتى جمعتهم ديار بنى هوازن .

أما زهير فقد غادر البيت عائداً إلى دياره حتى كان بسوق عكاظ ، وهناك ألقى عصا التسيار ليستريح ويستجم ، فقال ابنه قيس :

يحسن بنا أن نعجل بالرحيل فى غلس الليل ، حتى نجتاز ديار بنى عامر ، فنكون فى مأمن من كيد جعفر ومحاله .

فعز على زهير أن يحتال فى الهرب من وجه خالد ، وأصر على أن يقيم فى مكانه ثلاثة أيام ، استخفافاً بخالد وقومه ؛ فأيقن قيس أن قد دنا حَيْن أبيه ، وأخذاً بالحيطة وصى رجاله أن يكونوا على يقظة وحذر ؛ وبينا هم فى مقامهم هذا إذ أقبل عليهم فارس يعدو بجواده فى سرعة الريح ، وكان ذلك الفارس عمْرَو بن الشريد أخا تماضر زوج زهير ، وكان يحمل فى نفسه كراهية وضغينة لزوج أخته ؛ إذ نفاه من دياره لسوء أعماله ، فالتجأ إلى بنى عامر وأقام معهم فى ذمامهم ؛ ولا يزال يتمنى لزهير كل داهية دهياء .

قام عمرو بن الشريد بتحقيق رغبة خالد فى البحث عن زهير وكشف أخباره ، حتى لا تفوته فرصة الالتقاء به ، قبل أن يقوى جانبه باتصاله بقومه ، ولكن عمرو أخذ على خالد مواثيقه ، ألا ينال أخته وأولادها مكروه فى أنفسهم من أسر وغيره .

وما لاح عمرو لقيس بن زهير من بعيد حتى عرفه ، فقال لأبيه :

إن صدق ظنى فهذا خالى عمرو مقبل علينا من بنى عامر ، للبحث عنا وكشف أخبارنا .

فقال زهير : ليكن القادم من يكون ، فليس بضائرنا من بنى عامر ولا من غيرهم شىء .

ولما جاءهم عمرو واستقر فى مكانه بينهم ، سأله قيس فقال :

قدوم خير ورشد .

فقال عمرو : أرجو أن يكون ذلك ، لقد كنت فى شغل بكم حتى لقيتكم ، لأعلمكم ما دبره خالد بن جعفر لكم ، وقص عليهم كل شىء أراده خالد بهم .

فضحك زهير وقال : لقد أكبرتم صغيراً ، وأعظمتم حقيراً ! إن كنت قد جئت للتجسس فاذهب إليهم ، وأخبرهم أنى هنا ، فمن أراد أن تثكله أمه ، أو ترمل زوجه ، فليأتنى فى هذا المكان .

فغضب عمرو وقال :

لا يزال صدرك ثائراً بالحفيظة علىّ ، ولكن النوائب تنسى الأحقاد والضغائن ، وقد جئت إشفاقاً عليكم ، ففرّ بأهلك ليلا ، وانج بهم من بلاء يترصدك ، ويحيق بك .

فقال زهير : لن أبرح هذا المكان حتى يأتينى فيه خالد وقومه ،

وكيف أخشى عدوًّا أنا أكثر منه قوة وأغلب قتالا ؟ ! !

كل أولئك يجرى وقيس بن زهير فى تشاؤم أليم ، وخوف على أبيه عظيم .

فقال عمرو : دعونى — إذن — أذهب إلى حيث أشاء .

فقال زهير : لك ما تريد .

ولما هم عمرو بجواده أن يركبه ، أمسكه قيس وأوثقه ، فقالت أمه تماضر : لم تفعل هذا بخالك يا قيس ؟ !

فقال قيس : الأمر جد خطير يا أماه ، ولن يبرح أرضنا حتى يقسم الأيمان ألا يخبر أحداً بنا .

فقالت تماضر أم قيس : وما عليك فى ذلك يا عمرو ؟ !

فأقسم أغلظ الأيمان وأعظمها أنه لن يطلع على أخبارهم أحداً ، وطلب زاداً معه ، فأعطته أخته خبزاً ولبناً ، ثم انصرف .

ولما ذهب إلى بنى عامر أحاطوا به وسألوه عما وجده فلم يحر جواباً ، ولكنه ذهب إلى شجرة أراك ، وربّها بعصاه قائلا :

أيّتها الشجرة التى ليست بإنس ولا جان ، قد جئت بلبن من آل عدنان ، فذوقيه واعلمى أنى صادق اللسان ، وفى بالعهد ولم يحنث فى الأيمان .

ففهم خالد أنه كان عند زهير ، وأنه أقسم لهم ألا يقول شيئاً لأحد

عنهم ، وأمر قومه أن يذوقوا اللبن فى الحال ، فإن كان خاثراً فهم فى مكان بعيد ، وإلا فهم فى مكان قريب . فلما ذاقوه وجدوه حليباً طازجاً لم يختر ، فقال خالد :

أظنهم الآن فى سوق عكاظ ، فجدوا فى طلبهم قبل أن يفلتوا أو يأتيهم المدد من ديارهم . فنشطوا إليهم فرحين بما يرجون .

وهناك التقوا بزهير وشمرت الحرب عن ساقها ، فطاحت الرءوس ، وطارت النفوس ، وأبلى زهير بلاء حسناً ، ولكن ماذا يجديه ذلك وكثرة العدو ساحقة ، وأخيراً التقى خالد وزهير ، وكان قد أنهكهما الجهد الجهيد ، فقبض كل منهما على أخيه ووقعا على الأرض ، ولأن زهيراً تجاوز حد الأدب مع الله فى دعائه صرف الله عنه معونته وتأييده فجعله تحت خالد ، ومكنه منه ، فاستمر جاثماً فوقه ، وصاح ببنى عامر أن يسرعوا إلى قتل زهير ، وإن لم يمكنكم ذلك فاقتلونا معاً وكان ورقاء بن زهير أقرب إليهما فأسرع وضرب خالداً بسيفه ضربة طائشة ، فأعجل زهيراً حندج بن البكاء بضربة فى رأسه وصلت إلى مخه ، ثم نادى خالداً أن يقوم عنه . ولما قام عنه وهم أن ينصرف هو وجماعته ، أشير عليه أن يبيد بقية بنى عبس ، ويسبى نساءهم ، فقال :

لقد أعطيت العهد على نفسى لعمرو بن الشريد ألا أفعل ذلك ، وأخشى أن أقع فى الغدر فتسوء عاقبتى وكفانا قتل زهير ؛ فخلوا سبيلهم ،



الملك زهير وخالد بن جعفر يتقاتلان وفرسان بنى عامر على خيولهم وأولاد زهير ومعهم أمهم ينتظرون نتيجة المعركة

واسلكوا بنا الفجاج إلى الديار.

فنزلوا على رأيه ، وقفلوا راجعين .

وبينما هم سائرون قال خالد :

أخشى يا حندج أن تكون ضربتك غير قاتلة .

فقال :

لقد تعلم شدة ساعدى ، ولقد ضربته ضربة لا نجاة له منها ، وقد رأيت على صفحة سيفى شيئاً كالسمن ، فذقته بلسانى ، فوجدته مالحاً ، فأيقنت أن زهيراً مات وانقضى أجله ، لأن هذا طعم مخه ، وليس لمن يخرج مخه من شدة الضرب حياة .

أما أولاد زهير وزوجه ومن معهم فقد جاءوه فألفوه قد أشفى على الاحتضار ، وإن كان ما زال يعى بعض الوعى ، ويدرك قليلا جداً من الإدراك ، فأشار إليهم بما فهموا منه أنه وصاهم ألا يكفوا عن المطالبة بدمه ، وأن يعتزوا بعنترة ، وأن يجعلوه بينهم كأحدهم ، وألا يسمعوا فيه سعاية ساع ، ولا وشاية واش ، مهما عز الساعى ، وعلا قدر الواشى .

فعرضوا عليه أن ينقلوه إلى الديار ، فقال :

لقد أوفيت على الموت ، وإكرام الميت دفنه .

ثم عقد لسانه ، وفاضت روحه ، بين صيحات البكاء ، وأنات الحزن العميق ، وكان ورقاء الذى طاشت ضربته أشد أبنائه حزناً عليه ،

ثم كفنوه ودفنوه ، وطلبوا الديار فى حال تنفطر لها المرائر ، وتذوب الكبود.

أما خالد وصحبه فإنهم وصلوا إلى ديارهم فرحين ، وأخبروا غشم بن مالك بمقتل زهير ، وإخلاء سبيل أبنائه ومن معهم ؛ فناله بسلامة قيس وإخوته هم عظيم ، وقال لخالد :

بئسما فعلت ! ولو كنت معك ما تركنا منهم ناجياً .

فقال خالد : خشيت نقض العهود .

فقال غشم : إذن دعنى أتبعهم لأقضى عليهم .

فقال خالد :

الصيف ضيعت اللبن ، وذلك أمر لا يمكن تداركه ، فهم الآن على مقربة من ديارهم وأهليهم ، ولن تستطيع بعد ذلك مقاتلتهم ، إلا إذا كنت أصلب عوداً ، وأشد قوة ، وأكثر نفيراً ، وإن أردت عوناً كريماً فخذ ألف فارس ، وارتقب بهم عنترة فى طريقه ، وهو عائد من اليمن ، فاقتله وأرحنا منه ، فإنه الغارة الماحقة ، والقوة الساحقة .

فقال غشم ، وقد أخذته حمية الجاهلية :

ألم تجد لى مزية إلا قتل عبد أسود ، وذمة العرب إنى لا أرضى بقتل ساداتهم فكيف أرضى بقتل العبيد ؟ ! اذكر حين أتانى كتاب الأسود أخى النعمان يطلب منى أن أنصره عليهم فإنى ما رضيت أن أسير إليهم حتى لا أقاتل عبداً لا قيمة له ، فاذهب إليه أنت ودعنى

لحماية الأهل وصون الديار .

فقال خالد : ذلك عمل جليل ، وإذا كتب لى فيه النجاح ، عظمت هيبتى ، وذاع صيتى ، وخلد مجدى .

ثم عبأ جيشاً عدته ألف فارس ، فيهم الربيع بن عقيل ، وحندج ابن البكاء ، وخطب فيهم :

لقد بدأنا عملا خطيراً ، وإن فى القعود عنه دون أن نتمه مهلكة لنا أية مهلكة ، وقد قطعنا بقتل زهير رأس الحية ، ونحن سائرون الآن لنجهز عليها بقتل عنترة ، فإن نحن قتلناه نمنا ملء جفوننا وشملنا الأمن والسلام .

وجدوا فى السير حتى كانوا بشعاب المسارح من طريق اليمن ، فكمنوا فيها ، يرتقبون عنترة فى عودته ، وكان خالد هذا لا ينام إلا وسيف زهير الذى غنمه من تحت رأسه .

١١

كان عنترة قد سار مع أسيد وابنه نازح إلى بلاد اليمن ، ليخلص سلمى زوج أسيد ، وسمية ابنة الأمير عباد ، والتى يريدها نازح زوجاً له . فلما أشرفوا على ديار بنى القيان رأوا غباراً كثيفاً ، تلمع فى ظلمته

صحائف السيوف والأسنة ، يخوض لجحه فرسان فى اضطراب الموج ، وضجيج الرعد ، منهم الطالب والمطلوب ، والسالب والمسلوب ، فالتفت نازح إلى عنترة قائلا :

دهينا يا أبا الفوارس

فقال عنترة :

لا تخش شيئاً ، فانطلق وائتنا بنبأ ما نرى .

فخاض نازح بجواده هذا الغبار ، فألفى بنى القيان قد أحاط بهم أعداؤهم من كل مكان ، ووجد سيد القبيلة عباداً يتهالك على نفسه من شدة الجروح ، ووجد سمية ابنته فى هيئة المشردة باكية فى ناحية ، ووجد أمه سلمى فى شكل الثكلى تندب ابنها وتبكى ما حل بها فى ناحية أخرى : فانفلت إلى عباد وقال له :

لا تجزع ، وأبشر ، فقد جاءك النصر العزيز .

فأشرق السرور فى وجه عباد، وقال :

أين كنت ؟ وأين صحبك ؟ !

فقال نازح : حديثى طويل ، فأخبرنى أنت عن حالك ، فقد جئتك بفرسان ، لا يقدر عليهم إنس ولا جان .

فقال عباد :

بعد رحيلك عنا بزمن وجيز ،طلب إلىّ نقمة بن الأشتر ،ملك بنى

الأرقط وصاحب جبل الدخان والأرض السوداء ، أن أزوجه ابنتى سمية ، وإلا سباها سبى الجوارى والعبيد ، فأغلظت إليه الرد وقلت :

أنا لا أزوج ابنتى من رجل جبار لا يعف عن المخازى ، ولا يغار على الحرائر من النساء ؛ فاشتد به الغضب وفعل بنا ما تراه .

فطمأنه نازح ، وانفلت إلى عنترة ، وأطلعه على جلية الأمر ، وعرّفه أن القوم فى أحرج مواقف الخطر .

فقال عنترة : جاءتهم السلامة ، وحل بالأعداء الحسرة والندامة .

ثم جعل أسيداً ونازحاً مكانهما ، وقسم جيشه إلى ثلاث فرق ، ثم أمرها بالحملة على الأعداء دفعة واحدة ، فانهالوا على بنى الأرقط ، كأنهم البلاء المسلط ، وانطلقوا انطلاق ليوث الغاب وقد جاعت أشبالها . فالتهمت بنى الأرقط من كل ناحية ، حتى أحسوا أنهم فى عرصات الموت ؛ ولا منجاة لهم إلا بالفرار السريع والفوت ، وكان عنترة تتساقط بين يديه الفرسان تساقط الورق الجفيف فى يوم عصفت رياحه ، والتقى بكلبون بن نقمة قائدهم ، فضربه بسيفه ضربة ألقته على الأرض قطعتين ، وانجلت المعركة عن تمزيق بنى الأرقط ، وفرار من لم يمت منهم فرار الخائف المذعور .

اطمأن بنو القيان ، واستقرت قلوبهم فى صدورهم ، وجلسوا إلى عنترة وأسيد ونازح وعروة جلسة فرحة آمنة ، حدثهم فيها نازح بحديثه ،

فكاد عباد وقومه يطيرون من فرط سرورهم وعجبهم ، ثم قال عباد :

لقد كنت أحمل لبنى عبس بغضاً وكراهية ، لما بيننا من ثارات وغارات عنيفة ؛ والآن أصبحوا أولياء نعمتى ، وعماد حياتى ، فأنا وقومى عبيد لهم ، ندين ما حيينا بطاعتهم ومحبتهم .

فقال أسيد :

ما أنت الآن إلا واحد منا ، ولك فضل عظيم علينا ، فقد ربيت ابنى نازحاً تربية كريمة ، وإن شئت أن توثق رباطنا ، وتجعل منا ومنك أسرة واحدة ، فزوج نازحاً ابنى من ابنتك سمية .

فقال عباد :

ذلك ما كان يدور بخلدى الآن ، سبقتنى إليه ، فورب الأرض والسماء ، إنى لأرى هذا الزواج نعمة كبرى ، على سمية وأبيها وقومها .

وأعلن هذا الخبر وهذا الزواج بين قوم عباد ، وجاءت سلمى فالتقت بابنها وزوجها لقاء رد إليها شبابها ونضرتها ، وتم الزواج ، وأصبحت سلمى سيدة بيت عباد ، لها الأمر والنهى ، وانسلخت عنها تلك الأيام التى كانت فيها كالجوارى .

ولما أبدى عنترة رغبته فى العودة إلى الديار ، قال عباد :

إذا تركتمونا الآن أصبحنا حطباً لنار نقمة بن الأشتر ، فإنه لا محالة قادم إلينا بجيشه ، بعد أن يبلغه الفارون من فرسانه ، نبأ هزيمتهم وقتل

كلبون ابنه ، ولا يدفع عنا هذه الكربة إلا أنتم .

فقال عنترة :

وحق البيت المحرم لآتين بهذا الملك إليك مقيداً فى أغلال المهانة والأسر ، بعد أن أقتل رجاله ، وأخرب دياره ، وأجعلهم عبرة وذكرى .

فقال عباد :

ولكن نقمة هذا أشد الملوك قوة ، وأعزهم نفراً ، وأكثرهم نصيراً . وما ذلك الجيش الذى هزمناه إلا شرارة من ناره ، وغرفة من سيله وتياره .

فقال عنترة :

والذى خلق فسوى لا أذهب إليه إلا فى مائة فارس معهم عروة بن الورد وأبى شداد .

فقال أسيد : وبرًّا بقسمك سنمكنك من أن تتقدمنا بما شئت من الفرسان ، وسنلحقك بجيش عظيم بعد ثلاثة أيام ، ليكون مدداً لك عند الحاجة .

فقال عنترة : وستجدوننى إن شاء الله قد انتهيت من هزيمتهم ، وتمزيق شملهم .

وخرج عنترة : على رأس مائة فارس من بنى عبس ، ومعه عروة وأبوه شداد .

أما نقمة بن الأشتر فقد لبث يرتقب ابنه ، حاملا له

سمية بنت عباد ، وما كان يظن أن الزمن قد انكفأ حاله ، ولوى عنه وجهه ، حتى جاءه المنهزمون بالخبر الأليم ، ونعوا إليه ابنه كابون ، فقال :

لا أكاد أصدق ما تقولون ، ولا أسيغ هزيمتكم من بنى القيان ، وأنتم سبعة آلاف ، وعلى رأسكم ابنى كلبون ، ويبدو لى أنكم انسلختم عن الجيش فراراً وجبناً .

فقالوا :

وحق سيدنا العظيم ، لقد قتلنا رجالهم ، وسبينا نساءهم ، وأوشكنا أن نعود غانمين سالمين ، ولكنا دهمنا برجال من بنى عبس يقدمهم فارس فى هيبة العباب ، ومنعة السحاب ، وشدة العقاب ، ووطأة الدواهى الصعاب ؛ فجعلوا يحزون منا الرقاب ، ويطعنون مواطن الألباب ؛ فقتلوا ابنك ، وفرقونا فى البرارى أيدى سبا ، وكشفوا عن عباد وقومه غمتنا ، وردوا إليهم أمنهم وسلامتهم ، وذلك ما كان .

ثارت ثائرة نقمة ، وأمر كبار دولته أن يقدموا إليه كل مارق من جيش ابنه وهارب ، فجعل يقتلهم واحداً فى إثر واحد ؛ حتى ضج الناس ، وابتأس الحى ، ولم يجرؤ أحد أن يسكت غضبه ، ويقف تياره ، إلا أخوه نعمة ، وكان عاقلا حكيماً ، عادلا رحيماً ، ذا بصر نافذ ، وخلق كريم .

تقدم نعمة إلى أخيه نقمة وقال :

ما من قوة إلا وفوقها قوة ، والعاقل من تدبر ذلك وقدره ، وكثيراً ما حذرتك عواقب الإسراف فى البغى وانتهاك الحرمات ، وبصرتك بأن الدهر يقبل ويدبر ، ويحلو ويمر ، ويمنح ويسلب ، ويأخذ ويهب ، وقد أنذرك بفجيعتك فى ابنك ، ليثوب إليك رشدك ، فلا تمدن عينيك بعد ذلك إلى بنات العرب ، واتبع فيهن العرف والشريعة ، فتنزل بين الناس منزل السلامة .

فاحتدم نقمة غيظاً وسخطاً ، وقال :

عجباً لك ! ما رأيت منك إلا الوقوف فى سبيلى ، وكبح جماحى ، كيف أكون ملكاً ذا سطوة ، وأحرم على نفسى لذة أو شهوة ؟ ! لئن عدت إلى مثل موقفك هذا منى لأسقينك كأس الحمام ، فاذهب لشأنك ، ولا تخاطبنى فى أحد من شعبى .

انقلب نعمة إلى أهله غضبان أسفاً ، فاجتمع به أهله وذووه ، وكثير من الناقمين من أخيه ، وقالوا :

لا نستطيع صبراً على هذا الطغيان الجائر ، فمرنا فى أخيك بما تريد ، فقال :

لا سبيل لكم إليه ، ولن تقدروا عليه ، ولكنى سأرحل إلى بنى عبس الذين قتلوا ابنه ، وشقه فارسهم الأكبر نصفين ، لأستعين بهم على قتل هذا الوغد الظالم ، ولا أدع ملكاً من ملوك العرب إلا ذهبت إليه ، وأوغرت

صدره عليه ، وأجعل له منهم عدواً مبيناً ؛ فقالوا :

ونحن لك كما تريد . وانتهى أمرهم بينهم إلى أن شدوا رحالهم ، إلى حيث ينفذون خطتهم ، وما دبروه لنقمة الآثم .

١٢

بلغ نقمة رحيل أخيه وأنصاره ، لتنفيذ ما بيتوا من الكيد واغتياله ، فأصر على أن يلحق بهم ليعجل بقتله هو ومن معه . ثم يغير على بنى القيان ، فيهلك حرثهم ونسلهم ، ثم يرحل إلى الحجاز والعراق ، فيشعلها هناك حرباً ضروساً ، فيثأر لابنه ، ويكبت أعداءه .

لهذا كتب إلى بنى وشاح ، وبنى رياح ، وبنى الصباح ، وبنى مارق ، وبنى بارق ، وبنى الشماخ ، وبنى الشمراخ — يأمرهم بالمسير إليه فى فرسانهم وأبطالهم : وكانت هذه القبائل تطيعه ، ولا تعصى له أمرا .

وفى جيش عدته مائة ألف لحق بأخيه وصحبه فى أرض يقال لها عيون الحيوان وروضة المرجان ، فأمر رجاله أن يحيطوا بهم من كل جانب ، حتى لا يفلت منهم راجل أو راكب ، وقال لهم : من وقع أخى فى يده منكم استبقاه حتى ألقاه قبل أن أقتله .

عرف نعمة أن هذا أخوه وأن هذا جيشه ، وأنهم لا قبل لهم بلقائه ، فقال لصحبه :

إذا حاق بالمرء خطر الموت ، ثبت واستبسل ، حتى تكون الموتة كريمة ، والموتة الكريمة حياة ثانية خالدة ؛ وهذا أخى وجيشه ، يحملون الموت إلينا فى سيوفهم ورماحهم . فقالوا :

لقد نفرنا معك حبًّا فيك ، ونفوراً من أخيك ، وسترى اليوم ما يرضيك .

وفى تلك الساعة قدم عنترة ، فرأى جيوشاً على أهبة القتال ، فبعث أخاه شيبوباً يتبين الأمر ، فانفلت انفلات السهم إلى نعمة ، وكان هذا قد رأى جيش عنترة مقبلا ، وأن شيبوباً انسلخ منه قادماً ، فأدرك أنه يريد كشف الخبر ، وبيان الأمر ، فتقدم نعمة إليه ، ليجيبه عما يسأل :

قال شيبوب : من أنتم ؟ وما خبركم ؟

فقال نعمة : نحن قوم فررنا من وجه الملك نقمة بن الأشتر الجبار الأثيم ، فأدركنا بجيوشه الجرارة التى تراها ، والتى أحاطت بنا ، وجعلتنا بين شقّى مقص الفناء ، فمن أنتم ؟ وماذا تريدون ؟

فقال شيبوب : نحن بنو عبس جاء بنا فارسنا عنترة ليهلك نقمة الأشتر .

فرفع نعمة يده إلى السماء وقال :

الحمد لله الذى جعل لنا من همنا فرجاً ، ومن ضيقنا مخرجاً ، ثم التفت إلى شيبوب قائلا :

لقد كنا نقصدكم فى دياركم ، لنستجير بكم ، وتدفعوا عنا ظلم هذا

الطاغية ؛ ثم أخبره أنه أخوه ، وقص ما كان بينهما ، وطلب إليه أن يسرع إلى عنترة أخيه ، ليدركهم قبل أن يمزقوا ، فطار شيبوب إلى عنترة ، وألقى إليه الخبر كله ، فالتفت عنترة إلى أبيه شداد وقال :

إذا كان الأمر كما أخبر شيبوب فقد أضحى يسيراً ، ولكنى أخشى أن تكون مكيدة ، حتى إذا كنا بينهم ، أطبقوا علينا فعركونا عرك الرحى ،

فقال شداد : لا إخاله إلا صدقاً ، وأخذاً بالحذر ، نجعل هجومنا عليهم من ناحيتين ، فأنت وعروة من الميمنة ، وأنا من الميسرة ، وإذ ذاك ينكشف الأمر وتكون القاضية .

وهجم عنترة وأبوه وعروة على جيش نقمة ، والقتال بينه وبين أخيه نعمة لا يزال فى بدئه ، فتطايرت فى جيش نقمة الرءوس ، وبعثرت جثث الفرسان تحت سنابك الخيل ، ولبثوا يُحْصَدون حصداً ، حتى أسكت الليل القتال ، ورجعت رجال نعمة فرحة مظفرة ، وارتدت جيوش نقمة مقهورة مغلّبة ، يتجاوبون الاستعاذة من عنترة وصحبه ، وانزوى نقمة فى خيمته ، كاسف الوجه ، حزين البال ، مبلبل الخاطر ، من مرارة الهزيمة وخزى الانكسار ، فقالوا :

لا تلمنا ، فنحن أمام فارس ، لا نخاله من الإنس بيننا وبينه من الخوف والهيبة حواجز ، تتقاصر عنده الخطا ، وتخمد جذوة القوى ؛

فقال نقمة : سأبرز إليه معكم غداً ، وأسقيه أمامكم كأس الردى .

واجتمع نعمة بعنترة فى أثناء ذلك الليل ، وأطلعه على حال أخيه ، وما أخذ به الناس من طغيان عاسف ، وقال : إنه يتحكم فى الفرد ، ويسيطر على الجماعة ؛ وكم نصحت له : أن اتق الله ، ولا تخز العرب فى بناتهم ، فما نفعه نصحى ، وقال : لقد أكثرت جدالى ، ولئن دأبت عليه لأقتلنك ، ثم لأُصَلِّبَنَّك ؛ ففررت منه لما خفته ، وأدركنى بجيشه ، ولولا أن من الله علينا بقدومكم ، لكنا الآن طعاماً للوحش والطير ، وما تراه من هذا الجيش الذى من حوله أحد رجلين : رجل يبغضه ، ولكنه يأتمر بأمره مخافة بغيه ، ورجل يجهله ، فلا يلبث أن ينفض عنه إذا انجلت حقيقته ، ولو قتلته وطهرت الديار من رجسه وظلمه ، لكنا — بنى الأرقط — لكم حلفاء وأعوان . فبشره عنترة بنيل ما يريد .

وفى الصباح أخرجت المضارب فرسانها ، وتشققت الخيام عن أبطالها ، فغصت بهم ساحات القتال ، والتقت الأبطال بالأبطال ، فرجفت بهم راجفة الحرب ، وجاء جيش نقمة الموت من كل صوب ، ووثب عنترة على نقمة بن الأشتر ، فحز عنقه وبتره فهزم الجمع وولوا مدبرين ، واجتمع عنترة بنعمة ورجاله ، فهنأه بالفوز والسلامة ، وذبحت الذبائح وعمت البشائر والأفراح ، وأصبح أمر بنى الأرقط بيد نعمة الذى يحبونه ، ويرتقبون ولايته وحكمه . فشكره نعمة شكراً جزيلا ، وأغدق على بنى عبس مالا وفيراً ، ومنحهم نوقاً وجمالا لها من الميزة

ما للنوق العصفورية ، من حيث ندرة انتشا ها فى أنحاء الجزيرة ، ثم ودعهم وداعاً جميلا ، وقال له عنترة :

قرّ عيناً بملكك ، وإن مسك ضر ودعوتنا لجنبك ، وجدتنى حاضراً لديك ، فدفعت عنك الضر الذى مسك ، فقال نعمة :

سنعيش إن شاء الله فى رعايتك وكنفك .

وفى أثناء عودة عنترة لقيه أسيد وعباد ونازح ، قادمين إليه فى جيش ساحق ، تنفيذاً لوعدهم إياه ، فقال لهم : قضى الأمر ، واستوى نعمة على عرش أخيه ، وقتل نقمة شر قتلة ، وكان السحق والهزيمة لأنصاره الأثمة ؛ وقص عليهم عنترة ما كان ، ثم قفلوا راجعين إلى بنى القيان .

وبعد أن تفيئوا ظلال الراحة وكرم الضيافة رحل عنترة ورجاله ومعهم سمية زوج نازح وسلمى أمه ، حتى وصلوا إلى شعب المسارح ، حيث كمن لهم فيه خالد بن جعفر وفرسانه ، وجعل على جباله طائفة من رجاله ، ليروا على بعد قدوم عنترة ، فيأخذوه على غرة .

رأى النظارة على الجبال غباراً قادماً ، فخفوا إلى خالد بن جعفر وأخبروه ، وقالوا :

خيل مقبلة من البيداء ، ولا ندرى : أهى لعنترة أم لغيره ؟ ! فبعث رواده ليأتوه بنبئها ، فجاءوا إليه مسرعين ، وقالوا : إنها لبنى عبس

وفيهم عنترة بن شداد . فأمر رجاله أن يستعدوا للمعركة الحاسمة ، حتى يأخذهم فى ظلام الليل بغتة ، وكان النهار قد أوفى إذ ذاك على الإدبار ، والليل موشك أن ينشر ظلامه .

رأى شيبوب ألا يقطعوا شعب المسارح ليلا ، خشية أن يطوف على المال والرجال طائف من سالب أوناهب، فقال عنترة :

دع عنك هذه المخاوف ، فلن يتعرض إلينا إلا من دنا أجله .

قال عروة : ما دمت مصرًّا على المسير ليلا فلنجعل المال أمامنا ، والرجال من خلفه ، فذلك أصون للمال ، وأبقى على الرجال .

فقال عنترة : افعل ما تريد ، ولكنا سائرون .

فالتفت أسيد إلى شداد، وقال: هبت على عنترة نسائم عبلة، فنشط فى المسير ليعجل بالقرب منها ، برًّا بنفسه وقلبه ، فقد طال انتظاره ، فعلينا أن نسعى جد السعى فى زواجه بها ، عقب وصولنا إلى الديار .

ولما أوشك الصبح أن يتنفس ، كانوا فى شعب المسارح ، وبرز خالد ورجاله من مكامنهم ، وانشقت عنهم مخابئهم ، فلما أحس عنترة ورجاله هجومهم ، ورأوهم يعملون فيهم سيوفهم ورماحهم ، انهالوا عليهم ضرباً بالسيوف ، وطعناً بالرماح ، فلم يستطيعوا صبراً فلاذوا بالفرار ، ولم ينتظر مع خالد إلا من خشى العار ، فلم ير خالد سلاحاً ينجيه ، إلا الركون إلى المكر والخديعة ، فألقى سلاحه ، وسار على القعساء فرس زهير إلى

عنترة ، وناداه : يا بن الأجواد ، لعلك تقتل أقرباءك وأحباءك ، فمر أصحابك أن يكفوا ، حتى يعرف بعضنا بعضاً فلست أراكم من أهل اليمن، وقد يكون السيف قد نبا عن صادق القصد ، والحرب قامت بين الأهل والولد ، وأحب أن أعرفكم الآن .

أمر عنترة شيبوباً أن يرد فرسان بنى عبس ، حتى ينتهى من حديثه مع هذا الفارس ، وقال لخالد :

أما سؤالك عنا ، فنحن بنو عبس ، وأنا حاميتهم عنترة ، قدمنا من بلاد اليمن إلى ديارنا ، فاعترضتم سبيلنا ، فرأيت ما رأيت منا .

فقال خالد :

يا أبا الفوارس ! لقد ساقنا ظلام الليل إلى ماأصابنا من هذا الويل وأوذينا من أحب الناس إلينا ، وأعزهم لدينا ، وأقربهم منا وأشدهم رباط نسب بنا ، فلا عتب علينا وعليكم فيما وقع ، فهو قدر محتوم ليس له من دافع ، وما قتل إلا من جاء أجله ، وحان حينه .

فعجب عنترة أن يصيب بسيفه أقرباءه وأحباءه ، وقال :

ومن أنتم حتى نكون أقرباءكم؟ ! !

فقال خالد : سأنبئك ما كان فى غيبتك ، ولا تبتئس بما فعلت برجالى من بلاء ، فقد أثموا بما بدءوا من شرواعتداء ، والبادى بالشر أظلم ، وقد وهبت لك ما بيننا الآن من دم ، إبقاء على ما تجدد من صلة

الرحم . أنا خالد بن جعفر ، سيد بنى عامر ، اجتمعت بسيدكم زهير فى بيت الله المحرم ، وتوثقت بيننا رابطة الإخاء ، ثم ضافنى ونحن عائدون إلى الديار ، فكانت ضيافة مباركة ، أكدت وداً وحباً ، وأثمرت قرابة ونسباً ، فقد خطب زهير ابنتى بدر الدجى ، إلى ابنه شاس ذى العقل والقوى ، ومنحنى من المهر ما لا يقدر عليه أحد ، ووهب لى سيفه ، والقعساء هذه فرسه ، ثم ارتحل مشكوراً ، وأخذت فى تجهيز ابنتى ليكون زفافها محموداً ، وقد قمت بهؤلاء الفرسان قاصداً بلاد اليمن ، لأحضر لها من المال والثياب والأثاث والحلى ، ما يوائم قدر زوجها السامى ، وبيت الملك الناصر الزاهى ، فلما رأوكم فى سبيلهم ليلا ظنوكم غنيمة فطمعوا فيها ، وكان منهم ذلك العدوان الذى تجرعوا غصصه ، ولولا ضوء النهار ، الذى كشف لنا عن وجه الحقيقة ، لكان مصيرنا إلى بوار .

فذهل عنترة وأسف أن يكون سيفه أداة فناء فى أقرباء شاس بن زهير مليكه . وقال أسيد :

لا تحزن على ما كان ، فالقضاء لا مرد له ، ولا واقى منه .

ثم أمر عنترة أصحابه أن يطلقوا الأسرى ، فأطلقوهم ، وكان فيهم كثير من فرسان بنى عامر البارزين : كالربيع بن عقيل وحندج وغيرهما ، ثم ودعوا خالداً وانصرفوا جادين فى مسيرهم ؛ فقال شيبوب :

إن قلبى يحدثنى أن القوم كادوا لنا وخدعونا بلين جانبهم ومعسول قولهم .

وقال ثان : كيف تنطلى علينا هذه الحيلة وهم فيما أظن ما كمنوا لنا فى طريقنا إلا ليغدروا بنا ويهلكونا ؟ !

وقال ثالث : ولما وجدوا أنفسهم — لا محالة — هالكين ألقوا سلاحهم ، وأعلنوا كذباً خطأهم ، ليتخذوا من ذلك وقاية لهم ، ومنجاة من هلاك سعوا إليه بجيادهم .

وقال شيبوب : كان من الرأى السليم أن نبقيهم فى أيدينا مكرمين ، ثم نسير بهم إلى الحلة ، وهناك نعرف ما تجدد من الأمور والأحوال ولا يزال زمامها فى أيدينا ؛ أما الآن وقد أخلينا سبيلهم ، فقد نجدها تغيرت ، وحينئذ نندم على إطلاقهم ، وهيهات أن ينفع الندم ! !

وما زالوا سائرين حتى وصلوا إلى أرض الشربة والعلم السعدى فإذا هى تموج بالعساكر ، وتتجاوب أجواؤها لمعان السيوف وبريق الأسنة ؛ فقال عنترة :

تلك نائبة نزلت بقومنا فى غيبتنا ، وإنى لأشد خوفاً على الملك زهير ؛

فقالوا : لا نخالك إلا صادق الظن يا عنترة ، فإن الزمن لا تؤمن بوائقه .

ثم جدوا فى المسير فى سفح الجبل ، وتركوا الظعن من خلفهم تأتى على مهل .

وكان سبب ذلك أن قيساً لما عاد هو وإخوته نعوا أباهم زهيراً إلى الأحياء ، وأعلنوا موت أبيهم ، فذاع فى القبائل ، وانتشر فى البطون

والحلل ، فامتلأت الديار صراخاً وعويلاً ، وتوجعاً وتحسراً ، وقامت المآتم فى كل مكان ، فهنا لطم الخدود ، وهناك شق الجيوب ، وهنا نواح حزين ممدود ، وهناك ضجيج بالبكاء ، وتضرع إلى رب السماء ، أن يجمل الصبر على من سلف ، ويبعث الأمل مشرقاً فيمن خلف .

ووفد إلى قيس بن زهير رؤساء القبائل وكبار العشائر ، يعزونه فى أبيه ، ويهنئونه بالملك ، فكان يقول :

لا تهنئة بملك ولا غنى حتى آخذ بالسيف ثأر أبى ، وأبلغ من خالد ابن جعفر ما أتمنى . فاستجاب لعزمه هذا سائر القبائل ، وقالوا :

نحن فى يدك سيوف لا تغمد حتى نبيد الأعداء ، ونجعلهم فى طى الفناء .

ولما عرفوا من قيس ما كان من بنى عامر بعثوا فى طلب أتباعهم وفرسانهم ، وأصروا على غزوهم ، ينهبون أموالهم ، ويحصدون أرواحهم جزاء وفاقاً ، فكانت ديار بنى عبس تموج بالأحياء موج المحيط المضطرب .

قدم عنترة ومن معه فألفى الديار غاصة بكثير من بنى فزارة وذبيان ومرة وغطفان وغيرهم من قبائل العرب وعشائرها ، وقد لفحت وجوههم نار حزن حامية ، ولما وقف هو ومن معه على ما حل بقومهم شملهم حزن أليم ، وأدركوا أنهم خُدعوا إذ أخلوا سبيل بنى عامر بعد أن كانت رقابهم تحت السيوف ، وعزى عنترة أبناء زهير وهو فى ألم عظيم ، ثم رأى وجهة جديدة لقيس بن زهير

بعد جلوسه على عرش أبيه ، فاعتكف فى بيته عند أمه زبيبة مرجئاً وفاءه إلى حينه .

١٣

كان قيس زوج ابنة الربيع بن زياد ، فاتخذه مستشاراً موثوقاً به ، وجعل له فى حكمه رأياً مطاعاً ، وسلطاناً مبسوطاً ، وأمراً ونهياً لا مرد لهما .

ولما أراد قيس أن يسير بهؤلاء القبائل وفرسانها إلى بنى عامر ، وكان حذيفة بن بدر يبغض عنترة ، وينتهز هذه الفرصة لأن يخفض ذكره ، ويضعف شهرته — أشار على قيس أن ينتظر حتى يكتب إلى بنى مرة وفارسها وقريبه الحارث بن ظالم ، ليكون عوناً له ، وجعل يشيد بالحارث هذا ويرفع ذكره ، ويقلل شأن عنترة ، فيقول :

إن عنترة لا يقوم له شأن ، ولا يتحرك بذكره لسان ، إذا ما كان الحارث فارس الطعان ، فقد قتل من بنى لحيان خمسمائة ، وفقأ عين فرعون بن صخر فى الميدان ، وأنزل بنى الريان فى وادى العفريت ، وسترى فى هذه المرة كيف يكون نصركم بشجاعته وجرأته .

فقال قيس : قد سمعت عن شجاعته وتفوقه على عنترة شيئاً كثيراً .

اطمأن قيس إلى الحارث ، وأيقن أنه أصبح جلاداً ، وأشد قتالاً ،

وأثقل وطأة على الأعداء من عنترة ، ولهذا أغفل أبا الفوارس ، ووضع كل آماله فى الحارث بن ظالم .

وكتب حذيفة إلى بنى الحارث فارس مرة يثنى عليه، ويخبره بقتل الملك زهير ، ويستنصره على بنى عامر ، وبعث بكتابه هذا فارساً من بنى فزارة ، ووصاه أن يرجع إليه فى الحال ومعه الإجابة عن هذا الكتاب .

كان الحارث بن ظالم فارساً جباراً ، لا يرعى حقًّا لجار ، ولا حرمة لبيت الله الحرام ؛ يقتل الرفيق ، ويغدر بالصديق ، خبيث الطوية ، لا عهد له ولا ذمة ، وهو شديد الحرص على معرفة أخبار عنترة ، ويضمر له الشر والكراهية ، لأنه أسر أباه ظالماً ، وجز ناصيته ، ووصاه أبوه أن يأخذ بثأره ، ولأنه كان يحسده ويحقد عليه ، فهو يحب قتله ، حتى لا يكون فى العرب من يعرف بالفروسية غيره .

وكان خالد قد كتب إليه كتاباً قال فيه :

لقد قتلت شاساً وأباه زهيرا ، وعولت على أنى لا أترك من بنى عبس أحداً ، واذكر ما فعل عبدهم بأبيك ، وأريد منك النجدة والمعونة ، كما رغبت فى أن أزوجك من ابنتى بدر الحلل .

جمع الحارث خمسمائة من أبطاله وفرسانه وعول على المسير إلى بنى عامر ، ولما جاءه كتاب حذيفة قال لرسوله :

بلغ حذيفة أنى سابقه بفرسانى إلى ديار بنى عامر ، وربما قتلت

خالد بن جعفر قبل أن يدركنى .

وفى أثناء الطريق قال أصحابه : حدثنا يا حارث بما تريد أن تفعله ، فقال : أبشروا بالنصر وبلوغ المراد ، ولا بد أن نلتقى بهم فى القفار ، فنبيد رجالهم ونهب أموالهم ؛ فقالوا : ولمن تنتصر ؟

فقال : لبنى عامر ، وقد خدعت بنى عبس بما قلته لرسول حذيفة ، حتى لا تنقطع منا آمالهم ، ولا يستكثروا من رجالهم ، وحينئذ نبيدهم ونبلغ الآمال منهم ، وإن وقع فى يدى عبدهم الأسود جززت ناصيته كما جز ناصية أبى .

بلغ الرسولُ حذيفة ما قاله الحارث ففرح ، وأخبر قيساً بذلك ، ولم يكن يعلم أن خالد بن جعفر قد استعان به وآثره بالعون على حذيفة قريبه ، نكاية فى بنى عبس ، وطمعاً فى أن يقتل عنترة فارسهم الذى أسر أباه ظالماً وجز ناصيته ، وخلى عنه بعد أن أكسبه عار الأبد ومذلة الدهر .

وكان إغفال عنترة مثار السرور فى نفس الربيع بن زياد ، ولم يدر قيس أن هذا الإغفال عقوق وبعد عن الحزم وضلال عن الرشاد ، وأمر القوم بالمسير غير عابئ بعنترة ، ولا مهتم بصحبته ، ولا معول على معونته ، ما دام قد وثق بالحارث بن ظالم ورأى له فيه كل عون ورجاء ، وما كان فى فرسان قيس الذين ساروا معه إلا من ظن أن عنترة فيهم ، ولما تفقدوه ولم يجدوه ظنوا أنه ما تخلف إلا ليودع عبلة ثم يلحق بهم .

وكان مالك بن زهير يعرف كل ذلك ، فأطلع عنترة عليه ، وبلغه مقالة الربيع فيه، وتفضيله الحارث بن ظالم عليه، وكان مالك غير راض بذلك حتى قال لعنترة :

لولا أننى أخشى هزيمة أخى قيس وعار القعود عن ثأر أبى ما خرجت معه من أجل بنى فزارة والربيع بن زياد .

فقال له عنترة :

سر أنت مع أخيك ، ودعهم وما يفترون ، فإن انتصرتم فذلك ما أحبه ، وإلا ذهبت إلى الأعداء ، وثأرت منهم لمولاى وابنه ، وجعلت جثثهم حصيراً فى الصحراء ، فإننى لن أقعد عن ثأر مولاى زهير وابنه شاس ، ولن أنسى لهما فضل إلحاقى بالنسب ، ورفع منزلتى بين سادات العرب ، وسألزم بيتى كما أمرونى ، لأننى عبد والعبد لا يعصى مولاه .

قعد عنترة فى بيته مع أمه زبيبة ، فقالت له :

كم ألقيت بيديك إلى التهلكة ، لتحفظ قدر من لا يرعى لك الجميل ، فارحل بنا عن هؤلاء الذين يجحدون فضلك ، واهجر بنى عبس سنة واحدة ، ليروا ما يحل بهم من الهوان ، فقال لها :

أتريدين أن أترك عبلة لبنى زياد، فأصبح محطاً لسخرية الأعداء وشماتة الحساد ؟ ! لا كان ذلك أبداً .

فقالت زبيبة :

إن عبلة عليك مشئومة الطلعة ، ولا بد أن تهلك من أجلها بين السيوف والأسنة ؛ وأما قعودك عن السفر مع قيس هذه المرة فهو من حظك السعيد ، لأن أصحاب قيس الذين سافروا معه لا يسرهم أن يروك بينهم .

فقال شيبوب :

لقد أنطق الله لسانك بالحق ، لأن فيهم حذيفة بن بدر والربيع بن زياد ، وهما كما تعلمين على حقد عظيم ، وفيهم الحارث بن ظالم الذى جز عنترة ناصية أبيه ، وهو لا يسكت عن ثأره .

فقال عنترة : لا أعبأ بأمثال هؤلاء ، ولا أشغل بالى بهم .

وسمعت نساء عمومته أنه تخلف عن المسير ، فأتين إليه يهنئنه بسلامته ، وكانت عبلة وأمها معهن ، ثم سألته عبلة :

ما كنا نظن أنك تقعد عن الأخذ بثأر الملك زهير وابنه !

فقال لها : يا ابنة العم ؛ وجدوا حامية غيرى فأبعدونى ، فأردت أن أسير معهم فطردونى . ثم حدثهن بما قاله مالك بن زهير له ، فى شأن إهماله وقعوده ، فقلن :

ذلك من تدبير الربيع بن زياد ، فقد اتخذه قيس وزيره ، وجعله صاحب الأمر والنهى فى العشيرة ، ونسأل الله أن يكفينا شر مشورته .

ثم وزع عليهن الهدايا من ثياب وعقود قد غنمها من بلاد اليمن ، ووهب لعبلة خمسمائة ناقة وجمل ، ثم شكرنه وانصرفن .

ولما كان بنو عبس على مقربة من ديار بنى عامر ، تقدمهم حذيفة بن بدر فى ألف فارس من ليوث العرب وأشدائها ، طامعاً فى أن يلتقى بالحارث بن ظالم ، فينضم إليه ، قياماً بعهده ، ووفاء بوعده ؛ ولكن ما كان أشد دهشته ! ! وأعظم خجله وحيرته ! ! حينما رأى طليعة بنى عامر ، وعلى رأسها الحارث بن ظالم — ومعه غشم — فى مائة فارس ، يبغون قتال بنى عبس ، فعرف أنه قد خانه ، ولبى داعى لؤمه وقال فى نفسه :

ما كان لى أن أثق بكاذب أشر ، ولئيم قذر ، عبد شهوته ، وصديق منفعته ، ولا مفر لى الآن من أن أخوض غمارها ، وأصلى نارها

ثم قال له : ويل لك ! ! فعلتها وقطعت بخيانتك ما بيننا من نسب ، وما استحييت أن تصم نفسك بالغدر بين العرب .

فقال الحارث :

لا يهمنى أن أخون وأغدر ، ما دمت أبغى هلاك بنى فزارة وبدر ؛ ويل لك يا حذيفة ! ! كيف يصح فى عقلك أن الحارث بن ظالم يعين قوماً رفعوا عبدهم إلى منازل سادتهم ؟ والله يا حذيفة لن أرجع عن بنى عبس حتى أقتل عبدهم عنترة وأهلك سادتهم ، وإن أردت أنت السلامة فعد إلى قومك ، ودع عنك هذا الفضول ، وإلا كنت أول مقتول ، ويل لك يا حذيفة ! ! لقد كنت مع أبى ، وأبصرت ما فعله به عنترة حين جز ناصيته ، فنسيت الثأر ، وجئت تنصر من ألبسك ثوب العار

والخزى ؛ ثم أمر أصحابه بالقتال ، فالتحمت الطليعتان حتى أدركهما الجيشان ، فاستعر أوار جحيمها ، وقد جعل الحارث همه الفتك ببنى عبس من دون سائر القبائل التى جاءت لمعونتهم ، حتى جاء الليل فوقفت رحاها ، ولجأت كل طائفة إلى مضاربها ومأواها .

وجلس قيس بين أصحابه جلسة حزينة بما أصابه من الفشل والهزيمة ، وقال لهم : لم يكن ما أصابنا إلا لسوء تدبيرنا .

فقال حذيفة :

وما كنت أتوقع من الحارث أن يخون عهدى ، ويعق قرابتى ، ويقف منى هذا الموقف اللئيم الآثم .

فقال الربيع : والله يا أبا حجار ما كنت أعرفه إلا خائناً غادراً ، وما كنت أظن أنه يجاهرنا بهذه العداوة إلى هذا الحد ، ولولم يكن هو فى بنى عامر لأفنيناهم بسيوفنا .

فقال قيس : يا بنى عمى ! مضى ما مضى ، وليس لنا إلا أن نطاول القوم بالمبارزة يوماً بعد يوم ، حتى يأتينا من الحلفاء والأقرباء من يعيننا على دفع هذا البلاء .

فقال مالك بن زهير : والله يا أخى ليس فى الأمر إلا أنك تطلب عنترة بن شداد فهو الذى ينفس عنا هذه الكربة ، ويقتل هذا اللئيم الخائن .

فقال الربيع : أرى أن نستنجد بالملك النعمان ، وهو الذى يدفع

عنا بجنوده هذا الهوان ، فإن بنى عامر فى ثلاثين ألفاً ، والمدد يتوالى عليهم يوماً بعد يوم ، وعنترة لا طاقة له بهذه الألوف المؤلفة .

فقال مالك بن زهير :

أين نحن الآن من النعمان ؟ ! وأين الحجاز من العراق ؟ ! إن مدده لن يصل إلينا ، حتى يكون العدو قد فرغ منا . وإن لم يأتنا عنترة ابن شداد فسنكون طعاماً لسيوف الأعداء .

قال أسيد وجماعة ممن يحبون عنترة :

والله لو علمنا تخلف عنترة وإغفالكم أمره ما تبعكم منا أحد . والرأى أن تنفذوا إليه ، وتعولوا على معونته ، وإلا ذهب ريحكم ، وأصابتكم الهزيمة ، ولحقكم الهلاك .

فقال قيس :

ذلك حق ، فهو فارس قل أن يجود الزمان بمثله ؛ وبعث إليه معتذراً مستنجداً على أن يأتيه لساعته ، قبل أن يكون مساقنا إلى الأعداء .

وطلع النهار فاستأنفوا القتال اليوم كله ، ولما أقبل الليل أوى كل إلى مقره ، وقيس ينتظر عنترة على أحر من الجمر ويقول :

يا ليتنا نرد إلى ديارنا ولا نغفل أمر عنترة أبداً ، فإن استمرت بنا الحرب على هذه الحال فقد هلكنا ورب الكعبة .

فقال أسيد :

يا بن أخى ؛ إياك أن تسمع فى عنترة قولا يصرفك عنه ، ويقطع ما بينك وبينه ، وما كان لكم أن تنسوا فضله بينكم ، ولا مواقفه المشهودة فى حمايتكم ، والذود عن دياركم ؛ ولو كان معنا لشتت شمل الأعداء ، وجعلهم يهيمون فى البيداء ، وما احتجنا إلى بنى فزارة وبنى زياد ، ولا غيرهم من العباد ، ولو رأيت ما كان منه فى بلاد اليمن مالويت وجهك عنه طول الزمن ، فقد قتل نقمة ، وأجلس أخاه نعمة على عرش الملك ، ومتى فاق امرؤ غيره ، ولم يكن له حاسد يتقول عليه ، ويخفض ذكره ؟ ! فسماع القول فيه ظلم له ، وتعطيل لمواهبه ، وحرمان للناس من كفايته ، وصرف لغيره أن ينافسه ، وخير الملوك من طهرت حاشيته من كل ذى حقد أو حسد .

فقال قيس :

ما تركته باختيارى ، ولكنه كان معك فى بلاد اليمن فأحببت أن يستريح ، وطاوعت فيه قول الربيع بن زياد وأخيه عمارة ، وسأتخذ قولك هذا يا عمى شريعة ومنهاجاً ، ولكنى إن فررت الآن من المعركة ، لحقنى خزى دائم ، فلأصبرن على ما بلينا ، حتى يأتى الأجل ، أو يشرق الأمل .

وبات الحارث بن ظالم وهو يمنى خالداً أن يقضى على بنى عبس ، ويأسف أسفاً شديداً إذ لم يجد عنترة فى المعركة ، وظن أنه غائب وتمنى

وجوده حتى يقطع رقبته، ويرفع رأسه على سنان رمحه .

وفى الصباح ركبوا خيولهم إلى الساحة، فتقدم حذيفة راكباً فرسه الغبراء ، وكان يدخرها للشدائد ، فبرز إليه الحارث بن ظالم راكباً القعساء فرس الملك زهير ، وفى يده سيفه ذو الحيات وقال :

ويل لك يا بن بدر ! ! ارجع ولا ترم نفسك فى المهالك ، فقدأراد بعض فرسان بنى عامر أن يخرج إليك ليقتلك، ولكنى منعتهم وخرجت أنا إليك لأنصح لك بالرجوع وترك المبارزة لغيرك ، لما بينى وبينك من نسب، فاستمع لنصحى ، وقل لعنترة بن شداد ، إن الحارث بن ظالم فى انتظارك للجلاد، ليثأر لأبيه منك على مشهد من الفرسان والأبطال .

فقال حذيفة :

ويل لك ! ! إن عنترة قد طردناه وثوقاً بوعدك ، واعتماداً عليك ، ولكنا وجدناك خائناً غادراً ؛ ولو علمنا منك الخيانة لأحضرنا لك عنترة ، ليفعل بك ما فعله بأبيك من قبل ؛ واعلم أيها الخائن أن الملك قيساً قد أنفذ إليه من يحضره ، وغداً تلقون على يديه المذلة والهوان ، وسترى فرس الملك زهير التى تركبها الآن لمن تكون — وكان خالد قد وهب له القعساء فرس زهير وسيفه ، ووعده أن يزوجه من ابنته بدر الحلل ، ليتخذه عوناً له فى هذه الحرب .

ضحك الحارث وقال :

أردت يا حذيفة أن تقوم فقعدت ، وأن تنهض فوقعت ، كيف تعجزون عن مبارزة الأبطال ، وتعتمدون فى انتصاركم على العبيد الأنذال ؟ ! ولكنى سأخرسكم حتى لا تتحرك بهذا العبد ألسنتكم .

ثم تبارزا مبارزة حامية انتهت بطعنة من الحارث أصابت حذيفة ، فظن أنها القاضية وارتد بجواده راجعاً ، ورأى أخوه حمل ذلك فبرز حاملا على الحارث قائلا :

لعن الله أباك وأمك ، فما أخبثك وألأمك ! ! أهذا جزاء حذيفة منك ؟ !

فقال الحارث :

يا أرذل العرب ! لقد نصحته فلم يستمع لنصحى ، وهو الذى اختار ذلك لنفسه ، ثم حمل عليه وضربه فى رأسه ، فوقع حمل مغشياً عليه ، ووقف الحارث على رأسه حتى أفاق ، ثم قال له :

ارجع إلى أهلك ، ولا تعد لمثلها فتهلك . وجعل يركض بفرس الملك زهير هنا وهناك ، ويقول :

أقبلوا يا بنى عبس إلى المبارزة حتى نحصدكم فارساً فارساً، ولا تنتحلوا كثرة عساكرنا لكم عذراً . وجعل كلما جاءه فارس من بنى عبس قتله ، فخاف منه الأبطال ، وانقطعت فى نفوسهم الآمال ، ولهذا جال الحارث وصال فى الساحة مفتخراً متسامياً ، فاشتعلت فى صدور بنى عبس

نار النخوة والحمية ، وهان عليهم أن يسقوا شراب الموت ، فهو أسهل مساغاً وأعذب طعماً من كلام الحارث وافتخاره . وخرج إذ ذاك عروة ابن الورد ، وشداد بن قراد ، ومالك بن زهير ، والربيع بن زياد ، وأراد كل منهم ألا ينزل إلى ساحة القتال لمبارزة الحارث أحد غيره ، لأنه أوجعهم ببذىء قوله وسخريته ، فأقسم نازح بن أسيد ليخرجن إليه ، وقال :

إن سبقنى أحد إلى مبارزته قتلت نفسى بسيفى هذا ؛ وكان نازح هذا فارساً شديداً وبطلا صنديداً ، فجالا فى الميدان جولات عنيفة ، وغطاهما الغبار ، حتى اختفيا عن الأبصار ، وانتظر الفريقان لنازح موتاً عاجلا ، وقد أطال أبوه أسيد النظر إلى مكانهما وفى قلبه خوف وحسرة ، وبينما هما فى أشد المبارزة إذ خرج من طائفة بنى عامر فارس بدوى طويل القامة ، عريض الأكتاف ، مفتول الساعد ، أسود اللون ، أشعث أغبر ، لا تصلح عدته لحرب ولا نزال ؛ يلبس ثوباً قصيراً رثًّا مهلهلا قصير الأكمام ، حافى القدمين ، يركب جواداً هزيلا بطىء الحركة ، ولا تبدو عليه آثار غنى أو نعمة ، قد أخفى بلثامه معالم وجهه ، فظنه الحارث من عبيد خالد أتاه برسالة أو خبر ، ولما قرب منه صاح فى وجه الحارث قائلا :

إن لنا فى بنى عبس ترات قديمة لا تزال نارها تتأجج فى صدورنا ، وقد جئنا من مواطننا النازحة ، لنثأر لأنفسنا منهم ، وننهب أموالهم ، فكيف

تستأثر بقتل فرسانهم ، والظهور عليهم ، والسخرية منهم ؟! ! ثم صاح هذا البدوى صيحة مدوية ، فاشرأبت الأعناق وشخصت الأبصار ، وحار الفريقان ، فلم يعد أحد من الجمعين يفهم شيئاً ، إلا أن صدره مملوء عجباً وحيرة . فقال الحارث :

ماذا تريد بصيحتك ؟

فقال :

أريد بها أن تفهم نفسك ، ولا تحبس هذا الميدان عن غيرك ، أما تعلم أنى قطعت أودية وجبالا ، وكثباناً وتلالا ، وأوعاراً وقفاراً أبغى بذلك أن أكسب شيئاً من المال أرجع به إلى الأهل والعيال ، فوقفت أنت عقبة فى سبيلى ، فاخرج من الميدان وإلا طعنتك فى صدرك بهذا الرمح طعنة تسلمك إلى حتفك ، وينقطع بها خيط أجلك ، ثم قاتلت مع بنى عبس ويسرت لهم ما تعسر ، فما ألأمك وألأم خالد بن جعفر ! ورب الكعبة لأخذلنك أنت ومن معك .

فهاج الحارث كأنه العاصفة وطعن البدوى طعنة سريعة فزاغ عنها فى لمح البصر ، ورجع البدوى إلى الوراء ، وأراد أن يطعنه طعنة أشد من طعنته ، فخانه جواده لضعفه ، فضربه بالرمح بين أكتافه ضربة أفقدته صوابه ، وأشرف منها على هلاكه ، وانكسر رمح البدوى من تلك الضربة أربع قطع ، وخاف الحارث من ذلك البدوى فغمز

جواده فانفلت به بعيداً ؛ ولما بعد الحارث نزل البدوى عن جواده الهزيل ، وجعل ينظر إلى الفرسان يميناً وشمالا ويجمع قطع رمحه التى وقعت على الأرض ، والناس ينظرون إليه ويعجبون ؛ ومنهم من رماه بالجنون .

أما نازح فإنه أشفق على هذا البدوى ، وتمنى أن يشد أزره ليفتك بعدوه ، فجرى إليه بجواده وعدة قتاله ، وقال له :

دع عنك أيها الفتى ما أنت فيه ، وانهض إلى قتال عدوك ولا تهمله ، فقد جهل قدرك وازدراك ؛ وخذ هذا الجواد وهذا الرمح ، ولو أنك فى طعنتك الأولى على هذا الجواد لسقيت خصمك كأس الهلاك ، وبلغت منه مرادك وسرت معى إلى بنى عبس لتصير من خيرة رجالهم وإخوانهم ؛ فشكره البدوى ، وأخذ رمح نازح وركب جواده ، ثم قال له :

اركب أنت هذا الجواد الهزيل ، ولا ترجع إلى قومك ، وقف هنا فى مكانك حتى أجزيك بشىء من أسلاب هؤلاء الأقوام اللئام ، ولو أنك فى غير حاجة إلى جزاء أو هبة ، لأنه غير خاف علىّ أنك من أمراء العرب الأبطال ، ولكن صيد الحروب محبوب .

ولعب البدوى بالرمح فى الميدان ، فحير بمهارته الفرسان ، ثم حمل على خصمه ، وضيق عليه حتى أفزعه ، ثم طعنه بزجاج رمحه طعنة أوقعته عن فرسه ، وكادت عظامه يدخل بعضها فى بعض ؛ ثم قال لنازح :

خذ هذه الفرس ، فهى القعساء فرس الملك زهير ، وهى نظير



عنترة يصرع الحارث بن ظالم وهو متخف فى ثياب بدوى فقير

جوادك الذى تكرمت علىّ به .

فأسرع نازح ونزل عن الجواد الهزيل ، وامتطى صهوة القعساء فرحاً ، وكان قيس بن زهير يحتدم غيظاً وحزناً كلما رأى القعساء تحت الحارث بن ظالم ، فذهب عنه غمه وغيظه حين ركبها نازح ابن عمه .

وقال قيس إذ ذاك : ليذهب أحد منكم إلى هذا البدوى ويعده بالمال وبما يشتهى من نوق وجمال ، ثم يسوق الحارث بن ظالم إلينا ، قبل أن يحمل قومه على البدوى ويخلصوه من يده . ولكن البدوى سبقه إلى ذلك وأومأ إلى الطائفة التى خرج منها وقال : أين مفرج ؟ فخرج إليه فارس مثله ،ولكنه أحسن منه شكلا وقال : ماذا تريد ؟ فقال : دونك هذا الشيطان ، فأوثق كتافه .

رأى خالد ما حل بالحارث من ذلك البدوى الذى خرج من طوائف قومه ، ورأى أن الذى أوثق كتافه من جماعته أيضاً ، فجن جنونه وكاد من الغيظ لا يسيغ ريقه ؛ وقال :

لا بد أن يكون فى جيشنا من خدعنا ، أو أن أحداً من بنى عبس اختلط بجماعتنا ، أو أن الحارث غلب عليه لؤمه فكر بنا وأراد أن ينضم إلى صفوف أعدائنا : ومنع قومه من القتال حتى يتبين الحال . ثم أمر خالد أن ينزل إلى البدوى من يتعرف عليه ويستخبره حاله ؛ فخرج إليه حندج بن البكاء ، الذى ضرب زهيراً فى رأسه فقضى عليه ، وصاح فى

ذلك البدوى قائلا :

ويل لك ! ! من تكون بين العرب ؟ ! أبن عن نسبك ، فعسى أن يكون شفيعاً لك .

فابتسم البدوى وقال : لسنا فى ندوة سمر وشرب ، حتى نلوى ألسنتنا بالحسب والنسب ، وإنما نحن فى مصارع الحمام ، والقول فيها للحسام .

ثم حمل كل منهما على قرنه ، فجعل البدوى يصاوله ويداوره حتى أضعف قوته ، وأذهب صبره ، ثم مد إليه يده ، واقتلعه من جواده ، وضرب به الأرض ضربة قاسية ، جعلته يسلم إلى البدوى نفسه ، فى خشوع وذلة ؛ فالتفت البدوى إلى جيش بنى عامر ولوح بيده قائلا :

هيا يا مساعد ، فأسرع إليه عربى آخر يشبهه ، فأسلم إليه حندجاً فأوثق كتافه ، وساقه إلى رفيقه الحارث ، فى حراسة نازح والبدويين الأول والثانى مفرج ومساعد ، إلى أن يقبل الليل ويدبر أمرهما ، وأمر من سيؤسر بعدهما .

عجب قيس بن زهير مما رأى ، وقال :

رحماك يا رب السماء ! ! ما أقرب عونك ! ! وما أعز نصرك ! ! فقد نفست عنا كربتنا ، وكشفت ما بنا من ضر ، بهذا البدوى الذى لا نعرفه ، والذى سخرته لنا ، فكان رحمة ونعمة ، ثم التفت إلى صحبه وقال : جدير بكم أن تضموا هذا البدوى إلى صفوفكم ، فقد رأيتم من

جرأته وقوته العجب العجاب ، فقوض صرح العدو ، وأحيا فى نفوسنا ميت الأمل ، وشفى نفسى من العلل ، فقد وقع قاتل أبى وكفينا شر الحارث ابن ظالم ، ولقد فاق عنترة بما فسر بأعماله لمعنى البطولة والجرأة النادرة ، وجعلنا نفهم أنه ما من يد إلا ويد أخرى فوقها .

فقال شداد : لا تزال نغمة الحط من عنترة تتحرك بها ألسنتكم ، ولا يزال حظه عاثراً عندكم ! ! وهل ثبت عندك أن هذا الفارس البدوى واحد عصره ، وفريد دهره ؟

فقال قيس : نعم . يا شداد !

فقال شداد : ورب الكعبة إن هذا الفارس الذى تشيد بذكره ولدى عنترة ، والفارس الذى أتاه أولا وسماه مفرجاً هو أخوه شيبوب ، والفارس الثانى الذى سماه مساعداً هو أخوه جرير .

قال عروة :

صدقت يا شداد ، فإنى عرفت الفارس الأول بركبتيه ، لأنهما ليستا كركب غيره من الفرسان ؛ وأنكر قيس ما يقولون وقال :

لقد تركنا عنترة وأخويه فى ديارنا ، وإن بلغه أمرنا وأراد أن يجيئنا فلن يستطيع أن يلحق بنا فى هذه المدة القصيرة ، وإن استطاع ذلك فكيف يلتجئ إلى بنى عامر ، ويكون فى جماعتهم ؟ !

فقال شداد : يغلب على ظنى أن عنترة كان فى أثرنا ، ولم يتخلف

عنا إلا ليلة واحدة ، وأما التجاؤه إلى أعدائنا فلأنكم فضلتم عليه الحارث بن ظالم ، فاختبأ عنا بهذا الزى فى جيش الأعداء ، ثم كان معنا فى وقت الشدة والبلاء .

فقال قيس : ورب الكعبة لئن كنت صادقاً يا شداد ، لأخرجن إليه ، ولأقبلنه بين عينيه .

وهمّ أن يخرج ولكنه رأى نازحاً والبدوى مقبلين وهما يبتسمان ، وكان ذلك البدوى عنترة بن شداد ، وكان هذان العربيان اللذان ناداهما عنترة شيبوباً وجريراً . فانتعشت حياة العزة فى قيس ، وماج بنو عبس فرحاً ، ونهض قيس فى رجاله وحاشيته فسلم وحيا ، واعتذر عما كان منه من إغفاله ، وقال :

لقد اختلط علىّ الأمر بعد قتل أبى ، فكنت أقبل كل مشورة ، وأنزل عند كل رغبة ، خشية أن يختلف العرب فى بداية ولايتى .

فقبل عنترة عذره ، وسلمه حندج بن البكاء قاتل أبيه فأخذ قيس سيفه منه وقال : أبهذا السيف قتلت أبى يا حندج ؟

قال حندج :

نعم : وافعل بى ما شئت .

فقال قيس : ولن أقتلك إلا بسيفك .

فقال حندج : وهأنذا بين يديك .

فلما سمع عنترة هذا الكلام أخذ السيف وأطاح به رأس حندج ، وساروا إلى قومهم والحارث بن ظالم معهم ، وقد يئس من الحياة بعد أن رأى قتل حندج ، وأقبل الليل فأوت كل طائفة إلى خيامها ، غير أن خالداً فى خوف عظيم ، وبنو عبس فى فرح عميم .

كان عنترة وفياً لقومه ، فإنه بعد أن جرى من الحديث ما جرى ، من عبلة ومن معها من النساء ، أصر على أن يلحق بقومه ليدفع عنهم ما عسى أن يحدق بهم من خطر ، ولم يكن إغفالهم إياه واعتمادهم على سواه بمثبط همته ، ولا بمضعف وفاءه ، فأمر أخويه أن يصحباه وساروا ، متنكرين فى زى أعراب فقراء ، على أن يندسوا فى صفوف الأعداء ، حتى يكونوا فى طى الخفاء ، وكان ذلك منهم على نحو ما قرأت .

١٤

استشار قيس حاشيته فى أمر الحارث : أيقتله أم يتركه ؟ فأدرك الربيع أن فى قتله خسارة له ،لأنه هوالذى يعتمد عليه فى موقفه من عنترة ، فقال : إن الحارث منا ، وله عندنا رحم قريبة وإن فى قتله عقوقاً وإغضاباً لبنى مرة ، وفتحاً لباب من الشر نعجز عن سده ، فى ذلك الوقت الذى

نطالب فيه بثأر ملكنا وابنه ، والرأى أن نطلقه ليكون لنا حليفاً وذخراً عند الحاجة .

وقال شداد : والله يا ربيع ما الرأى إلا أن تقتله ، وماذا ينتظر من الخير على يد خوان غادر ؟ إنه داء يجب استئصال شأفته فدعنا نقتله ونقتل كل من كان على شاكلته من قومه ، وننهب أموالهم ونؤدبهم حتى لا تقوم لهم قائمة .

وقال أسيد : أرى أن تحضره لنكشف أمره ، فإن كان محلا للصنيعة اصطنعناه ، وإلا قتلناه .

فقال قيس : ذلك رأى سديد . وأمر بإحضاره .

وجىء بالحارث مصفداً ذليلا ، فابتدره عنترة قائلا :

ماذا خبلك حتى طمعت فى بنى عبس ؟ !

فقال : لقد جنى علىّ خبالى ، وغرنى وهمى ، فند عن إدراك الصواب عقلى ، والتوت معرفته على ذهنى ، فطمعت فى قتلك أنت ، لأثأر منك لنفسى وأبى ، وظلمت بذلك نفسى ، ووددت الآن أن تخلى سبيلى لأكون أسير صنيعك ، وردءاً لك فى أيامك .

فقال عنترة :

ولكنك لا ترعى عهد محسن إليك ، ولا تعترف بجميله عليك .

فقال الحارث : كنت كذلك وأنا غارق فى غرور من قوتى ، وضلال

من سطوتى وتكبرى ، وقبل أن أقع فى محنتى وأسرى ومهانتى على الناس وعلى نفسى ، والمحن صقال النفوس ، وتخليص لها من شوائب الضلال والغرور ، فلست واجداً منى بعد هذه المحنة ناكثاً يميناً، ولا خافراً لعهد . وأقسم برب الكعبة لأعكفن على الوفاء لك ما حييت .

فالتفت عنترة إلى قيس قائلا :

لا ضير علينا أن تفكوا رقبته ، وسواء عندى حياته أو موته ، فإنى فى غنى عنه وعن أمثاله ، فأفيدوا صنيعاً بعتقه .

فقال قيس : خلوا عنه ، فشكر الحارث له هذا الصنيع وقال :

إن لى فى جيش بنى عامر خمسمائة فارس من أشداء بنى مرة ، ولن أرجع بهم إلى الديار حتى أعطيكم موثقاً من أعمالى على صدق ما عاهدتكم عليه من الوفاء والإخاء ، وذلك بأن أحمل بهم على خالد وجيشه حتى يهزم الجميع .

فقال عنترة : لا أريد أن أشق عليك ، فارجع بجيشك إلى ديارك ، ولا يحسبن خالد وقومه أن فى تركنا لهم الآن خيراً لهم ، بل هو شر عليهم ، وسيرجعون بالهزيمة يوم المعركة الحاسمة ، وإذ ذاك يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر .

فقال أسيد : لا تقصر من همة الرجل ، ودعه يفعل ما يريد ، وأتبع إحسانك إليه إحساناً آخر ، بتمكينه من تغطية موقفه ، وتأييد

موثقه ، ليكون عذره بعد ذلك نسخاً لإنسانيته ، ومحواً لوجوده وكرامته .

ولما خلى عن الحارث تلقاه الربيع بن زياد ، وخلا به فى طائفة من بنى زياد فرحاً بخلاصه ، لأنه لا يزال يضمر الشر بعنترة ، فسأله الربيع عن خبيئة نفسه ، وكان الحارث يعلم أن الربيع يبغض عنترة ، ويكيد له كيداً ، فقال :

لا تحسبن ما أعطيته عهداً ، ولكنه المكر والحيلة ، لأنجو من هذه الورطة ؛ وما دامت الحرب معلنة فلا عهد ولا ذمة ، ولن أسكت عن هذا العبد حتى أقتله .

فقال الربيع :

وستجدنى لك فى هذا خير عون ونصير ، ولكن ليس هذا أوان تنفيذ ما عزمت ، لأننا محتاجون إلى عنترة ليكشف عن قيس شدته ، ويدرأ عنه البلاء الذى أحاط به ، ولتمعن فى إخفاء غدرك ، فلتقم الآن بما عاهدتهم عليه ، واترك لى وللزمن فرصة التدبير ، فالأمل عندى واسع ، والزمن طويل .

أنفذ خالد بن جعفر جاسوساً بالليل ليكشف له خبر الحارث بن ظالم ، وخبر الفارس الذى أسره ، فلما عرف الجاسوس كل شىء رجع إلى خالد وقال :

إن البدوى الذى أسر الحارث وحندج بن البكاء هو عنترة بن شداد ،

وقد صالح الحارث بنى عبس على أن يطلقوا سراحه ، وأن يحاربنا ويهلك أبطالنا ورجالنا وينهب أموالنا .

فقال خالد :

لعنه الله فقد عاد إلى سجيته من الغدر والخيانة ، ولهذا وجب أن نبيد رجاله قبل أن يصل إليهم ويحاربونا ، فأمر قومه أن يهجموا على بنى مرة ، فهجموا عليهم هجمة أوقعت بهم كل شر وبلية ، وسمع الحارث صياحهم وعرف أن خالداً يحاربهم ، فخف إليهم ومعه الربيع وإخوته وفرسانه والفارون من بنى فزارة ، لأن قيساً أمرهم بذلك ، وحملت بنو عبس على ميمنة بنى عامر وفى مقدمتهم عنترة ، وأوقعوا بخالد وقومه هزيمة منكرة ، حتى اضطر خالد أن يفر بقومه إلى الديار ، وأراد عنترة أن يتبعهم فمنعه قيس وقال :

تمهل حتى تأخذ الجيوش راحتها ثم نغزوهم فى عقر دارهم ، فاطمأنوا فى مضاربهم فرحين بما أوتوا من نصر عظيم على يد فارسهم وحاميهم عنترة بن شداد ، وجمعوا الأسلاب والمغانم ، وأشار عنترة أن يجعل المغانم كلها لبنى فزارة ويأمرهم بالرواح ، لأن حذيفة متعب من جراحه ،

فقال قيس :

كفانا يا حذيفة ما لقيت أنت وقومك من المتاعب والأهوال ، وأنت قد جُرحت من أقرب الناس إليك ، وقد أصلح ما بينكما ، وأود

أن ترحلوا إلى دياركم مشكورين .

وصل بنو عامر ديارهم ، وأيقنوا أن بنى عبس فى أثرهم ، فنقلوا عيالهم إلى رءوس الجبال يعتصمون بها استعداداً للقاء بنى عبس إذا حضروا .

سار قيس فى أربعة آلاف فارس إلى ديار بنى عامر ليستأصلوا شأفتهم ثأراً لأبيه وأخيه ، فألفاهم قد اتخذوا شعاب الجبال سكناً وحصناً ، خوفاً على أنفسهم من هذا الغزو الذى كانوا يتوقعونه ، ويرتقبون حدوثه ، كما وجدوهم على أهبة المبارزة ، فخرج إلى بنى عبس فارس فى إبان فتوته وشبابه ، على فرس كأنها الريح ، وجال فى الميدان صائحاً :

يا بنى عبس ! أنا عامر بن الطفيل ابن خالة غشم ، فعلىّ بفرسانكم المشهورين ، ذوى الأيد والقوة ، فبرز إليه فارس من بنى عبس يسمى سابق بن إياس ، فلم يلبث أمامه طويلا حتى طعنه برمحه طعنة خر على أثرها صريعاً ، ثم نادى فى بنى عبس :

هل من مبارز آخر ؟

فبرز إليه فارس فلقيه عامر بن الطفيل ، فضربه بسيفه فقضى نحبه .

وجعل ذلك الفارس الفتى يجول جولات المنتصر ويقول لبنى عبس :

لا تغرنكم حداثتى ، فترسلوا إلى مبارزى الأوزاع والهمل من فرسانكم ،

ولكن ابعثوا المبارزين من أبطالكم،حتى أريكم مهارتى فى القتال وفى فرسانكم .

فأثار هذا القول اللاذع الحمية فى رءوس بنى عبس ، وبرز إليه فارس حسن الخلق ، منسجم القوام يسمى قراوش بن هانئ ، وهو ابن عم الملك قيس بن زهير ، وبعد مبارزة عنيفة وقع قراوش فى يد عامر أسيراً ، فهابته فرسان بنى عبس ،وهم عنترة أن يخرج إليه فسبقه نازح ابن أسيد وقضى معه بقية النهار فى نزال ، ثم لجأ كل منهما إلى جماعته حتى يأتى صباح الغد .

ولما جاء الصباح خاض عامر الميدان ، منتظراً من يبرز إليه من الفرسان، وكانت أمه قد منعته أن يغشى المعارك، خوفاً عليه من المهالك، فعصاها وجعل يصول قائلا :

يا بنى عبس ، مالكم مفر من حسامى وسنانى ! وأراد عروة أن يخرج إليه فمنعه عنترة قائلا : لست من رجاله، فدعه لمن خلق لأمثاله . والتقمه عنترة أسيراً بعد جولات لم يطل مداها ، وانتهت مبارزة عامر هذا بأسره ، فخرجت أمه إلى الساحة فى تلهف وحسرة ، وجماعة من العبيد يسوقون قراوش بن هانئ إلى عنترة ، فجعلت تتوسل إليه أن يخلى عن ابنها على أن تسلمه قراوشاً فيه ، فأبت نخوة عنترة أن يفجعها فى فلذة كبدها ، وفك وثاقه ورجع بقراوش إلى قيس بن زهير ، فشكر له

سابغ فضله وعظيم بلائه .

أيقن خالد أن عنترة لو طال به أمد المبارزة التقم رجاله فارساً فارسا ، فبرز هو إلى الساحة على جواده ، ونادى متكبراً متحدياً ، وقال :

يا بنى زهير ؛ ما ذنب العرب تجمعونها للقتال؟! ! ابرزوا إلىّ أنتم، فأنا الذى قتلت أباكم زهيراً ، ولست براجع عنكم حتى أبيدكم ، وليكن قيس بن زهير أول من يبارزنى ، فهو الحاكم لبنى عبس ، كما أننى الحاكم لبنى عامر وغنى وكلاب ، فمن غلب منا صاحبه كان الأمر له .

فعز على قيس أن ينزوى ويخضع أمام هذا التحدى الصارخ ، وهمّ أن يبرز إليه ، فإما ظهر على قرنه ، وإما مات ميتة كريمة ، فقال عنترة: دعه لى أيها الملك حتى أريحك منه فى لمح البصر أو هو أقرب .

فقال قيس : ورب الكعبة لأخرجن إليه وإن جرعنى غصص المنون ! وما قيمتى بين الرعية إن لم يكن نصيبى من الجهاد أكبر من نصيبهم ؟ ! وذهبت جهود عنترة فى سبيل منعه سدى .

واحتدم الجلاد بينهما مدة طويلة حتى أرهق كل منهما صاحبه ، واستعان بجنده، فاندفق الجيشان اندفاق السيل ، واشتبك الفريقان ، واشتد الطعن والضرب، وعنترة يدير على الأعداء كئوس الردى ، ويلقى فى قلوبهم الرعب والفزع ، فأصيبوا بهزيمة منكرة ، وقد أسر عنترة

خالد بن جعفر كبيرهم وهم بقتله ، فناداه الربيع قائلا :

لا تفعل يا عنترة فإن مالك بن زهير وأخى عمارة قد أسرا ، وإن أنت قتلت خالداً قتل قومه مالكا وعمارة ؛ فاستبقاه عنترة وساقه أسيراً ، وكان الربيع يحرص على بقاء خالد ليتخذه عدة فى الفتك بعنترة حين تحين له الفرصة .

أحضر قيس بن زهير خالداً بين يديه ، ورغب إليه أن يطلق سراحه على أن يفك أسر مالك أخيه وعمارة ؛ فوافق ذلك أمنية فى نفس خالد ، وأقسم أن يخلى عن مالك وعمارة عقب وصوله إلى جيشه .

ولما رجع إلى جماعته وأبدى لهم تنفيذ وعده بإطلاق مالك وعمارة ، اعترضوا رغبته ، وأصروا على قتلهما ، فقال :

لقد أعطيت العهود والمواثيق على إخلاء سبيلهم ، ولا يصح لسيد مثلى أن يتوج هزيمته بغدر جائر قد يكون له سوء العقبى فى صفوفنا ، ومن الرأى أن أنجز وعدى على أن نأخذ على الأسيرين عهداً بحمل قيس على مهادنتنا حتى نأخذ أهبتنا ، ونعزز بالرجال والأعوان صفوفنا ، ثم نحمل عليهم حملة خاطفة لا تبقى منهم باقية . فوافقه رجاله على رأيه ، وأطلقوا سراح مالك وعمارة .

وعاد مالك وعمارة إلى قيس ، وأخبراه بما يبغيه خالد من أمر إرجاء

الحرب إلى حين ، فقال قيس : خيب الله بنى عامر ، وأنزل عليهم بلاءه ، إذ لا يزالون يعمهون فى ضلال من ضغنهم وغدرهم .

فقال الربيع : إن القوم قد استعصموا بالجبال ، وقتالهم الآن يرهق فرساننا ، ومن الخير أن نستجيب لرغبتهم حتى يطمئنوا فى ديارهم ، ثم تغزوهم بعد مدة الهدنة غزوا لا يدع فيهم فارساً أو راجلا .

فرضى قيس بذلك ، وأمر قومه بالرحيل إلى الديار ، ولما قربوا منها باتوا فى واد كثر شجره ، وطاب مقامه ، يستجمون ويستريحون ؛ ولما هموا بالمسير تفقد قيس عنترة فلم يجده ، فابتأس وحزن ، وقال :

لن نبرح هذا المكان حتى أعرف أين عنترة أو يأتينى .

فقال عمارة : ومن عنترة هذا الذى يعوق سير جيش برمته ؟ !

فقال قيس : عجبت أن تكون لرب نعمتك جاحداً منكراً أما تستحيى أن تأكل لحم أخيك بالغيب ؟ ! إنه عنترة ذو الفضل السابغ عليك وعلى أخيك الربيع وعلى بنى عبس أجمعين ، إنه عنترة الذى لولاه لكنا الآن ترابا ، أو أسرى أذلة . وهو إلى ذلك ابن عمك رضيت أو أبيت .

كان لهذا القول فى نفس الربيع لفح الجحيم ووخز السهام ، ولكنه كظم غيظه ، كدأبه فى كل ما يغيظه ، وقال :

إن أخى كثير اللجاج والعثرات وتتبع العورات ، ولا يحسن فى

مواطن القول ، والرأى أن نرحل برجالنا ، ففيهم من برح به الحنين إلى أهله ، وفيهم الجريح الذى هو فى حاجة إلى الراحة ؛ أما عنترة فلا خوف عليه ، وربما ألح عليه الشوق إلى عبلة فسبقنا إليها .

فأدرك قيس من الربيع أنه يريد أن يشعل الفتنة بين رجاله ، فأفسد عليه تدبيره وإيقاعه ، وأمر قومه بالرحيل .

ولما وصل إلى الديار وسأل عن عنترة فلم يجده استشاط غيظاً ، وقال : لقد ظلموا عنترة ونسبوا إليه ما تند عنه مروءته .

١٥

رجع مالك بن قراد مع الراجعين من حاشية قيس وجنوده ، فسمع أن عنترة كان يجتمع بعبلة فى جمع من لداتها ونساء قومها وقت أن كان غائباً بديار بنى عامر ، فقال لزوجته غاضباً :

كيف تسمحين لشاب مثل عنترة أن يجتمع بابنتك يتحدث إليها وتتحدث إليه ، وأنت تعلمين أنه يحبها ويسعى فى الزواج منها ؟ !

فأرادت أن تدفع بالتى هى أحسن حتى تسكت عنه الغضب ، فقالت : نحن طوع أمرك ، ورهن إشارتك ، وما رضيت بذلك إلا

نزولا على إرادتك بعد أن أعلنت أن عنترة زوج عبلة .

فقال مالك : قد مضى زمن هذا ، فقد أعلنته أيام زهير وابنه شاس اللذين جعلاه سيداً ومن المقربين ، ولكنهما ماتا وزالت دولتهما ، وليس لعنترة الآن من دونهما ولى ولا نصير ، فإن سمعت بعد الآن أنه اجتمع بها فإنى سأذبحكما ذبح الشاة .

فقالت : ولن يكون إلا ما تريد .

ولما كان الغد حضر حذيفة بن بدر وإخوته من دياره ، ومعه جماعة من بنى فزارة ووجوه عشيرته يهنئ قيساً على سلامته ، ويسأله عما كان فى غيبته ، فقص عليه قيس ما كان ، ورفع ذكر عنترة بن شداد وجعل له فضل النصر على الأعداء ، وأثنى حذيفة على عنترة ، ولكنه كان يضمر فى نفسه من الكراهية والبغضاء ما تحترق منه الكبود وتنفطر المرائر .

وبينما قيس وضيوفه يأكلون ويشربون ويتحدثون ، إذ سمعوا فى الأحياء صياحاً وجلبة ، فسأل قيس عنها ، فقيل : قدم عنترة وأخوه شيبوب ، فعلت وجهه نفحة من فرح عظيم . ولما كان بين يديه سأله عن غيبته فقال :

كنت أبنى مجداً لمن لا يستحقه .

فقال قيس : ومن تعنيه بهذا القول ؟

فقال عنترة : أعنى خبيث النفس لئيم الطبع : الذى إن أكرمته تمرد وإن احتقرته وأهنته ذل وخشع .

فقال قيس : لا يزال من تعنيه وراء حجب الغيب .

فقال عنترة : هاك قصتى ، ومنها يتبين من أعنى .

فقال قيس : قل وأوجز :

فقال : أقمت نفسى حارساً خشية أن يطرقنا طارق فى الليلة التى افتقدتمونى فيها ولم تجدونى ، فلاح لى على بعد شبح أعرابى فأسرعت إليه أتبين أمره ، فلقيته راكباً فرساً كأنها النعامة ، فسألته عن أمره فقال : إنى قحطانى و بينى و بين الربيع بن زياد صداقة من عهد سالف ، وأنا بشارة بن معبد ، ولى بنت جميلة الخلق ، فخطبها رجل من سادات العرب ، فسرت بمائة ناقة من مالى أبيعها فى القبائل والحلل لأجهز بثمنها ابنتى ، فقابلنى أربعون فارساً من قطاع السبل فنهبوها ، ولذت بالفرار لأنجو بنفسى ، وجئت قاصداً ديار بنى عبس أبتغى معونة الربيع ، فقلت له : أبشر برجوع مالك إليك ، فإنى من عبيد من جئت تستصرخه ، فدلنى على أعدائك لأرد إليك ما نهبوه .

وسرت من خلفه حتى التقيت بأعدائه ، بأرض النفير وماء بنى قرير ، فقتلت منهم خمسة وعشرين فارساً، وضاع الباقون فى معامى الصحراء، وعاد الأعرابى إلى دياره ومعه أمواله شاكراً ، هذا ما فعلته

فى الربيع وعشيرته ، وكان جزائى من عمارة أخيه أن يرجمنى بالغيب فى حضرة الملك وكبار حاشيته .

وكان عروة بن الورد قد أخبر عنترة بما جرى من حديث عمارة حينما التقى به وهو قادم على الأحياء ، إذ كان قلقاً عليه ، ولا ينفك يبحث عنه حول الديار ؛ ثم التفت عنترة إلى عمارة وقال :

إن لم تنته عن هذا اللؤم الفاضح لأقلعن رأسك .

فثارت حمية عمارة ، وسل سيفه ، وهم بعنترة يريد أن يقتله ، فمنعه الرجال ، وقام إليه الربيع وضربه ووبخه على كره منه ، ولكنه يخشى أن يثور عنترة فيقضى على عمارة ومن يشايعه ، ولهذا جعل يشيد بذكر عنترة ويعدد مآثره على بنى زياد وبنى عبس إطفاء لجذوة نار إن اتقدت كان بنو زياد لها حطباً . فقال عنترة لعمارة :

لو أنك رجل ذو نخوة لبرزت إلىّ حيث لاتجد أحداً يصرفك عنى .

ثم انصرف إلى داره حيث استقبلته أمه استقبالا رد إليها شبابها وحياتها .

أما الربيع فقد قال لقيس : من الحكمة أن لا نجمع بين عنترة وعمارة ، وقد رأيت فى شأنهما رأياً سأطلعك عليه بعد أن يرحل ضيوفنا ، ولا ينبغى أن نعكر عليهم صفو الوليمة ، وإن الصبح لقريب .

وفى غداة اليوم التالى رحل حذيفة ومن معه إلى ديارهم ، أما الربيع

بن زياد فإنه رحل هو وإخوته وبنوعمه وأتباعه إلى وادى اليعمورية، وقال : لاجاورت بنى عبس أبداً ما دام عنترة فيهم، لأنه سب أخى ، وما غضب قيس من أجله ، ولا نهاه عن الخوض فينا . وما أنكر قيس على الربيع رحيله ولا رحيل أهله وأتباعه ، وتمنى أن تمحو الأيام ما فى نفوسهم ويعودوا إلى قومهم كما كانوا .

١٦

كان خالد بن جعفر قد كتب إلى دريد بن الصمة سيد بنى هوازن وجشم وهمذان وإلى غيرهم من قبائل العرب يستنصرهم على بنى عبس وعدنان وفزارة وغطفان .

وكان قيس يرقب أحوال بنى عامر وما عسى أن يفعله خالد بن جعفر ، فبلغه أن خالداً ارتمى فى أحضان دريد بن الصمة، ورجاه أن يعينه على قتال بنى عبس ، فعز على قيس ذلك وقال :

هذا هو الفزع الأكبر ؛ وجمع فرسان بنى عبس وأخبرهم فقالوا :

دعه يجمع ما عنده فنحن له هنا كالغصة فى حلقه ، ولا ينبغى أن ندع لشانئنا متنفساً ، ولا أن نصبر عليه أبداً، وليس لنا الآن إلا قتال بنى عامر ما داموا قد استعانوا بدريد بن الصمة .

فقال قيس :

وحينئذ ينوب عنى فيكم عمى أسيد ، حتى آخذ عدداً من النوق فأبيعها فى قبائل العرب وعشائرها ، ثم أشترى بثمنها دروعاً ومغافر وسيوفاً ورماحاً ، لتكون أسلحتنا وافية .

فقالوا : لا بأس فى ذلك .

وسار قيس فى مائة فارس لبيع النوق والجمال وشراء الأسلحة ، فجاءه المساء عند مدينة يثرب فنزل على أميرها أحيحة بن الجلاح ضيفاً ، ولقى منه كل إكرام ، وتجلة واحترام ، ودار بهما الحديث فى شئون مختلفة، وذكر له قيس ما خرج من أجله ، وطلب إليه أن يمنحه أو يبيعه درعاً سابغة متينة ، لا يؤثر فيها سيف ولا رمح كان قد ورثها ابن الجلاح عن أبيه ، فقال :

لقد ألح علىّ فيها خالد بن جعفر فما رضيت أن يأخذها ، ومنحته درعاً غيرها ، وإن نفسى لراضية أن تأخذها ، ولكنى أخشى أن يبلغ ذلك خالداً، فيعتب علىّ عتباً قد لا أحتمله ، فأمهلنى حتى أفكر وأدبر وسيلة ترضيك ولا تغضب خالداً .

فقال قيس :

لك ذلك ، ثم حياه وذهب لبيع النوق والجمال ، وشراء ما يريد من الأسلحة ، ولما تم له ما أراد من بيع وشراء رجع إلى دياره ، وبات

ليلة عند ابن الجلاح أمير يثرب فى أثناء عودته، إذ كان يرجو أن يكون قد وفق إلى وسيلة يحصل بها على الدرع التى عنده ، وقد تحقق ما كان يرجوه ، فاستقبله ابن الجلاح استقبالا كريماً ، وأهدى إليه الدرع وأذاع أنه باعها بمقدار كبير من المال . فشكر له قيس تلك الهدية العظيمة ، ثم ودعه وانصرف إلى دياره ، ولما قرب منها بعث بما معه من مال وسلاح إليها ، وجد فى سيره حتى كان عند وادى اليعمورية الذى رحل إليه الربيع وأهله وأتباعه ، فبلغه أن قيساً بالوادى ، فخرج إليه واستقبله وسأله عن خالد بن جعفر ، فقال قيس :

ألم يبلغك ما فعله ؟

فقال الربيع : بلغنى أنه استعان بدريد بن الصمة، وهذا قد كفل له هلاكك وهلاك بنى عبس، وليس لنا الآن إلا أن يشد بعضنا أزر بعض ، وننسى ما بيننا ، ونوحد صفوفنا، ونجمع كلمتنا وقوتنا للقاء بنى عامر ، فهم أشد الناس عداوة لنا .

فقال قيس : جزاك الله خيراً .

ثم سأله الربيع قائلا : بلغنى أنك اشتريت أسلحة لهذه الحرب ؛ فأين هى ؟

فقال قيس : أرسلتها إلى الديار لتوزيعها على الفرسان .

فسأله : وماذا فى حقيبتك هذه ؟

فقال قيس : درع لا نظير لها : ثم أخرجها وأطلعه عليها .

فقال الربيع : تلك درع لا وجود لها عند أحد، فمن أين جاءت إليك؟

فقال قيس : وهبها لى أحيحة بن الجلاح فى أثناء زيارتى له .

فقال الربيع : لقد وهب لك تحفة قيمة ، تفوق كل ثمن وإن غلا ، ثم لبسها الربيع فكانت على قده، ودخل خيامه متقلداً سيفه وقال :

قد يأتى الزمان بما لم يكن لك فى الحسبان ، هذه درعى التى سرقت منى ، وقد رجعت إلىّ ، فرجع الحق إلى صاحبه .

فداخل قيساً منه ريبةٌ وغدر ، وقال :

قبيح بمثلك أن يعامل زوج ابنته وملكه بما يعامل به عدوه .

فقال عمارة : لا تبتئس بما فعله الربيع ، فعندك عنترة الذى رفعتموه إلى السماء، وجعلتم له لسان صدق فى جزيرة العرب ، فدعه يأت إلينا ليستخلص لك درعك المغصوبة بسيفه وسنانه، فحسم قيس هذا النزاع الغادر بسكوته، وكظم غيظه، وودعهم إلى دياره؛ وهناك قص على زوجته ما كان من أبيها الربيع فى أمر درعه ، فقالت ابنته الجمانة :

لا تحزن يا أبت فإن جدى الربيع يحبنى ولا إخاله إلا نازلا على رغبتى ، فكل إلىّ رجوع درعك وانتظر حتى أعود بها إليك .

فقال أبوها : افعلى ما بدا لك .

وكانت عاقلة لبيبة شاعرة ، فركبت ومعها جماعة من العبيد وذهبت إلى جدها فى وادى اليعمورية ، فاستقبلها فرحاً بها لأنه يحبها

كثيراً ، وبعد أن جلست قالت :

إنك أغضبت أبي قيساً باغتصابك درعه ، واحتجازها دونه ، وقد أقسم قسماً عظيماً أنه لن يغسل ثيابه حتى ترد إليه درعه ، فارحم ضعفي ، وأشفق على قلبي الذى يحزن من أجلك وأجله ، ولا تعكر بفعلك هذا صفو المعيشة بين أبي وأمي وقد جئت إليك فيها ، فلا تردنى خائبة .

فقال الربيع : يا جمانة ! وحياتك لو صبر لرددتها إليه ، ولكنى أقول إنه قرب منه عبد شداد وأبعدنى ، وحين غضبت ورحلت لم يسأل عنى ، وفى نيتى ألا ترد هذه الدرع إلا بإراقة الدماء .

١٧

رجعت جمانة كاسفة البال ، حزينة الخاطر ، وأطلعت أباها على ما كان من جدها معها ، وقالت :

بالله يا أبي إن استطعت أن تهب الدرع لجدى وتتركها فافعل ، فقد أصبح من المحال أن يقبل شفاعة أحد بعد أن ردنى ، ولم يستجب لرجائى ، وقد أصر على ألا يرد الدرع إلا كرهاً ، وبعد أن تراق فى سبيلها الدماء ، فلا تجعلها مثار نكد فى حياتك ؛ وأنت ملك ، وكثيراً ما تجرى على يديك هبات كثيرة للأقربين والأبعدين .

فقال قيس : وقد اشتد غضبه وحنقه :

ورب الكعبة لأقاتلن جدك الربيع قتالا عنيفاً ، ولأذيقنه قسوة المعاملة ، ولن أغسل رأسى حتى أريح صدرى ، وأفرغ من كل عدو بسيفى ورمحى . وكان قد شاع فى الحلة عجز قيس ، وتقوّل عليه الناس بعض الأقاويل السيئة ؛ وكان عنترة قد هنأه بقدومه ، وأطلعه قيس على ما اشتراه من سلاح ، ولكنه أخفى عنه مسألة الدرع التى أخذها منه الربيع بن زياد .

وبعد أيام أبلغ عروة بن الورد عنترة حادثة الدرع ، فعز عليه ذلك ، ومضى إلى قيس ، ولامه أن ذهب إلى الربيع ، وأن أرسل ابنته جمانة إليه ، وقال :

لو أنك أخبرتنى يوم أخذها منك لأحضرتها رغم أنف الربيع فى أقرب فرصة ، بعد أن أشبع بنى زياد طعناً وضرباً ، وتقتيلا وتجريحاً ، وبعد أن أجعل وادى اليعمورية خراباً . فابتسم قيس وطرب وقال :

ومن أجل هذا حبست عنك خبرها ، فقد خشيت على بنى زياد من حسامك ، وأرى أن نرجئ ، مسألة الدرع الآن ، لننظر فى حرب خالد بن جعفر ، ونديِّر أمراً يكفل لنا الفوز والنصر . ثم رجع عنترة إلى داره وهو غاضب ، ونقم من قيس عجزه أمام الربيع .

أحضر عنترة أخاه شيبوباً وحكى له قصة الدرع ، وقال :

إن ما بى من الهم لأخذ الدرع لأضعاف ما بى من الهم لقول عمارة لقيس : أرسل عنترة حاميتك لاستخلاصها بحسامه وسنانه، وإنى عزمت على استخلاصها، وإن أفنيت من أجلها بنى زياد، فماذا ترى ؟

فقال شيبوب : سترد إليك بأيسر سبيل .

فقال عنترة: وكيف ذلك ؟

فقال شيبوب : تخرج معى الليلة إلى وادى اليعمورية ، وهناك نختبئ فى جوانبه ، فإذا ما التقينا برجل من رجالهم أوثقناه وحملناه إلى ديارنا، وجعلنا الدرع فدية له، ولا عتب علينا من قيس ما دمنا قد أحضرنا الدرع ، ولو قتلنا من أخذناها منه .

فقال عنترة : لا عدمتك يا أخى فقد أشرت بالصواب ، ولعل الربيع بن زياد أو أخاه عمارة يقع فى أيدينا ، حتى أشفى صدرى بتعذيبه ، وأرجو من الله أن يبلغنا ما نريد : وما دمنا نؤازر الحق فسيجعل الله لنا من أمرنا يسرا .

ولما أقبل الليل بظلامه ، وبرق نجم سهيل فى سمائه ، تنكر عنترة وشيبوب فى زى العبيد، وطلبا وادى اليعمورية ، وليس معهما إلا السيوف والخناجر ؛ وكان شيبوب يحدث أخاه، وعيناه تدوران فى الفضاء ذات اليمين وذات الشمال، فرأى جواداً قائماً ، ورجلا نائماً بين يديه، فى طريقهما إلى ذلك الوادى ، وقد ثقل نومه ، وعلا غطيطه ، وهو

يرتدى ثياباً قيمة، ويلبس عمامة ، فقال شيبوب :

لعل هذا النائم عابر سبيل أرغمه التعب على أن ينام فى هذا المكان .

فقال عنترة : فلنوقظه من نومه ، لنقوم بما قد يكون فى حاجة إليه من معونة . فصاح به شيبوب، فانتبه والنوم لا يزال يملأ عينيه ، وانتصب قائماً وهو يقول :

أراك يا مولاى عدت هذه الليلة ، ولما يمض عليك إلا فترة قصيرة ، على غير ما مر عليك فى الليالى الماضية ، فهل اكتفيت بالتمتع من عبلة بهذا الزمن اليسير ، أو حال بينك وبينها ما لم يكن تعلمه ، أو وجدت رقيباً فخفت أن تقع عليك عينه ؟ !

فدهش عنترة وشيبوب من ذكر عبلة ، والتمتع بلقائها كل ليلة ، وفى الحال هز كل منهما سيفه فى يده ، وسأله شيبوب :

من أنت ؟ ! ومن عبلة هذه التى ذكرتها ؟ !

ومن مولاك الذى تعنيه ؟ !

لمع فى عينى الرجل بريق السيوف ، فارتعدت فرائصه ، وقال :

أمهلنى فى أمن من سيفك ، حتى أحدثك حديثى .

فقال شيبوب : قل فأنت آمن .

فقال ، وهو يظن أنهما غريبان عن هذه الديار :

أنا عبد من عبيد عمارة أخى الربيع بن زياد ، وهذا جواده ، وتلك

عمامته وثيابه ، وهو يأتى كل ليلة إلى هذا المكان ، فينزع عنه لباسه ، ويذهب إلى ديار بنى عبس متنكراً فى لباسى ، وهناك يختلط بعبيدهم ، ليمتع نفسه بالنظر إلى عبلة بنت مالك بن قراد — خيبه الله وإياها — ثم يعود إلىّ فى هذا المكان ، ويقسم لى أنه لم يقع لعبلة على أثر ، فننفلت إلى ديارنا بوادى اليعمورية ؛ وهكذا كل ليلة .

فقال شيبوب : وكيف يخفى على عبيد بنى قراد ؟ !

فقال الرجل : إن له فيهم أصحاباً يغريهم بالمال ، فيعملون على إخفائه .

فقال شيبوب : وما دام لم يرها ولم يقع لها على أثر فلماذا يأتى كل ليلة ؟ !

فقال الرجل : إذا حيى فى النفس الأمل ، فهو يدفع صاحبه إلى العمل .

فقال شيبوب : ذلك قول لا نستسيغه ولا نصدقه ، ولعلك فزعت منا ، فاعتصمت بالكذب والحيلة ، وما نحن إلا غريبان ، نجول فى كل واد ، ابتغاء النهب والسلب ، ولنا ثلاثة أيام لم نظفر فيها بطائل ، فاخلع ثيابك ، واترك جوادك ، واطلب ديارك ومقصدك ، وإلا هلكت لساعتك .

فأعطاهما الثياب والجواد ، وخطا خطوة واحدة ، وإذا بعنترة قد ضربه بالسيف ضربة فى عنقه ، فسقط رأسه بين رجليه ؛ فقال شيبوب :

وما ذنب هذا المسكين يا عنترة ؟ !

فقال : إنه عاون عمارة فى جريمته ، فأحببت أن أحرم بهذا القتل المعونة على أحد غيره . والآن هيا بنا إلى الديار ، قبل أن يطلع على عمارة النهار ، فيفلت من أيدينا .

فقال شيبوب : إن نحن عدنا الآن فقد تختلف بنا السبيل فلا نلتقى به ، ولكن الرأى الصائب أن نعكف فى هذا المكان حتى يجيئنا فيه ونحن مستريحون ، فإذا ما جاءنا أسرناه وحملناه إلى الديار ، حيث نحتكم فيه بما نشاء .

وقام شيبوب فلبس ثياب عمارة وعمامته ونام أمام جواده ، كأنه عبده الذى يصحبه كل ليلة ، وعنترة مختبئ بالقرب منه ، وما زالا كذلك حتى مضى الليل إلا أقله ، فحضر عمارة واستقبله جواده بصهيل مطرد لا ينقطع ، كأنه يقص عليه ما جرى فى غيبته ، فقال عمارة :

مالك أكثرت من الصهيل ؟ ! لقد جئتك بعد أن شاهدت عبلة ذات الوجه الجميل .

ثم التفت إلى شيبوب وهو موثق كأنه عبده الذى خلفه عند جواده حتى يأتيه ، فوكزه برجله وقال :

لا يزال النوم يطمس حسك ، فلا تشعر بالقادم عليك . قم وانزع ما عليك من ثيابى ، قبل أن يفضحنا الصبح بضوئه ، وجعل عمارة

ينزع عنه لباس عبده هذا ، ولما خلع ثيابه انتصب شيبوب قائماً ، ورفع يده بالسيف وقال : وقعت يا عمارة فى ورطة من ضلالك القديم ، وخبث أخيك اللئيم، وحق عليك الهوان الأليم . وأسرع إليه عنترة من مخبئه ، وكتفه بحبال أسره بعد أن لطمه على وجهه ، فقال عمارة :

وكان لا يزال يظن أن عنترة وأخاه من قطاع الطرق .

خليا عنى ، ولكما ما تقترحان من الأموال ، وإلا أذاقكما الربيع ابن زياد أخى كئوس الوبال ، وأدرككما انتقامه وبطشه كما يدرك الليلُ الإنسان .

فقال عنترة : أعماك هذيانك ، عن معرفة من أوثق كتافك ؛ أنا عنترة بن شداد، الذى طلبته من الملك قيس، ليخلص درعه من أخيك . أنا عنترة الذى يحرم عليك أن يتحرك لسانك بذكر عبلة ، ويحرم عليك أن تزور ديارها فى زى العبيد الأنذال .

فانحلت أعصاب عمارة ، وخارت قواه ،وذهب جلده ، ودارت عيناه فى رأسه، وتوقع العطب والتهلكة ، فقال متضرعاً :

لا تؤاخذنى بما فعلت يا بن عمى، ولا ترهقنى من أمرى عسرا ؛ فقد ألح علىّ الغرور ، حتى وقعت فى هذا الخطأ المحظور ، وكم لك من فضل سابغ علينا، فلا تخالف سنتك فينا ، واعف عنى ، يكن لك الجزاء الأوفى ، عند أخى وأهلى ، وسأعطيك هذه الدرع المشئومة ،



عمارة المتنكر فى ملابس العبيد وأمامه شيبوب ممسكا باللجام وطلع عليهما عنترة على جواده

التى ما كان لأخى أن يتشبث بها ، ويفجع الملك قيسا فيها .

فقال عنترة : ذلك هو الخضوع اللئيم ، وأين كان عقلك وجلدك ، حين قلت :

هاتوا لنا عنترة ليخلص الدرع من أيدينا ؟! ! البس يا لئيم ثياب عبدك ، فإنى سائر بك إلى ديارنا .

وأخذه عنترة فى الليل خفية ، وأودعه بيت أمه زبيبة ، وأسبل حجباً كثيفة من الخفاء على معتقله .

وفى الصباح شاع فى حى الربيع غيبة أخيه عمارة ، وغشيتهم سحب من الهم والقلق والظنون فى أمره ، فقالت أمه وإخوته :

لم ينج عمارة من براثن عنترة !

وقال الربيع : إن صدق ظنى ، فإن قيساً قد احتجزه ، ليكون الصفح عنه ثمناً لدرعه . ولكن خاب ظنه ، فسأرغمه على إطلاق أخى من أسره ، وأعلمه كيف يحترمنى ، ولا يغفل شأنى ، وسأنسيه عنترة ، والإشادة بذكره ، وسأجعلها واحدة بواحدة ، فأجعل أخاه مالكاً فى عمارة أخى ، والبادى أظلم .

وبلغ قيسا اتهام الربيع له ، وأنه بث العيون من حوله ، ليأسر أحداً من إخوته ، جزاء بما فعله بأخيه عمارة ، فقال :

لقد كذب الربيع واعتدى ، فما فكرت فى عمارة وأسره ، وما دار

بخلدى شىء مما اتهمنى به ، وأما عنترة فإنه لم يغب عن الحلة ، وما أظن إلا أن عنترة يأبى أن يقتل عمارة إن وقع فى يده لأنه لا يريد ذلك ، ولو أراده ما وقف أحد فى سبيله ، وكثيراً ما فك من الأسر رقبته ، وهذا أمر لا يخفى على أحد ، وأرى أن نأخذ حذرنا من الربيع ومكره ، ووصى إخوته أن يحافظوا على أنفسهم وأموالهم .

فقال مالك أخوه : لا يضق صدرك بالربيع ومكره ؛ وإن كنت فى خوف منه جعلت خليلى عنترة حارساً لأموالنا وعبيدنا ، فتغدو وتروح آمنة ، وإن تعرض إليها الربيع قصمه .

فقال قيس : إن عنترة إن التفت إلى بنى زياد وشهر فيهم سيفه أبادهم أجمعين ، وأرى أن نرخى ستاراً على هذه الفتنة حتى ننتهى من حرب خالد ابن جعفر ، وبعد ذلك أجزى الربيع بأعماله ، وأخلص منه الدرع غصباً .

فرضى أخوه على مضض ، واستنكر فى نفسه لين الجانب عند أخيه .

وبلغ عنترة رأى الملك قيس ، فقال لأخويه شيبوب وجرير : إن الملك قيساً فى فزع من الربيع ومخافة . وقد هادنه وألان له جانبه خشية أن يكون عوناً لأعدائه ، وتلك حال لا ترضينى ، ولكنى لا أستطيع أن أخالفه ، أو أفعل شيئاً على غير رأيه . وأرى أن يخرج واحد منكم كل يوم إلى المرعى ، ويقوم بحراسة المال ، وأبناء الملك زهير من غير أن

يشعر أحد بذلك ، فإذا رأى الربيع قد دهمهم بغتة ، فليعلمنى فى الحال وأنا أريهم عاقبة أمرهم .

فقالا : سمعاً وطاعة .

واجتمع مالك بن زهير بعنترة ، وتحدث إليه بما قاله الربيع ، وأنه أصر على أن يثأر لأخيه عمارة منا ، ثم شكا إليه لين أخيه قيس وخوفه من الربيع وإمهاله إياه حتى ننتهى من حرب خالد بن جعفر .

فقال عنترة : لا تجزع من موقف أخيك ، ودعه يفعل ما يشاء ، فإنه يرعى بنى زياد لقرابتهم منه ، ويظن أنهم جنوده وأنصاره ، فهو دائماً يبقى عليهم ، ولا يستغنى عنهم ، وأما عنترة فإنه قضى من بنى زياد مآربه ، على غير علم من أخيك الملك .

فاستبشر مالك وقال :

وكيف ذلك يا بن العم ، يا مزيلا من الصدور كل هم وغم ؟ !

فأخبره بأسر عمارة ليلا ، وحبسه فى دار أمه زبيبة خفية ، وجميع ما حصل فى هذه الحادثة .

فقال مالك : لقد شفيت صدورنا ، ومكنت لوجودنا وقوتنا ، وأرى أن تقتله ، على أن يبقى أمر قتله سرًّا ، لا يجد له أحد من بنى عبس وغيرهم ريحاً .

فقال عنترة : لا أفعل شيئاً يأباه أخوك قيس ، وقد أودعته فى

دار أمى ليكون ثمناً لدرع أخيك ، وقد عرض علىّ ذلك عمارة ، ولكنى أبيت لعدم وثوقى به ، فلننتظر ما سيكون .

ومضى على أسر عمارة ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع سمعت ضجة وصيحات فى الأخبية المتطرفة ، وجاء شيبوب إلى عنترة ينادى : أن أدرك صديقك مالك بن زهير ، قبل أن ينزل به ضر الربيع بن زياد ، فقد كانت نوبة مالك اليوم فى حراسة المال ، فأغار عليه الربيع وجنوده فى المرعى ، وقتل خمسة من رجاله ، وقد تركتهم والقتال على أشده .

فما أسرع أن امتشق عنترة حسامه ، ولبس لأمته ، وامتطى جواده ، وفر كالريح إلى حيث الربيع وجنوده ، فوجد مالكا قد أحاط به خمسة رجال بسيوفهم ورماحهم ، ووجد أموال الملك زهير يسوقها عبيد الربيع بن زياد ، والربيع فى نشوة النصر وبلوغ الأمل ، ينتظر أن يأسر فرسانه مالك بن زهير ، فنزل بينهم نزول الصاعقة ، فانفرج الفرسان عن مالك انفراج التمرة عن نواتها ، فاغتم الربيع ، وقال :

من أخبر هذا الشيطان بقدومنا ، وكأنه كان مختبئاً يرقب وجودنا ؟ !

وحاول الربيع أن يستحث جماعته ويفهمهم أن عنترة وحده ، ولا يصحبه أحد من قومه ، فما أغنى ذلك شيئاً ، ودحر الربيع وجماعته دحوراً ، فاتخذوا الفضاء مهرباً ومفرًّا ، وأدرك عنترة الربيع وهو يعدو بجواده هارباً ، وعليه درع الملك قيس التى أخذها منه غيلة وغدراً ،

فسدّ عنترةُ منافذ الهرب فى وجهه، وطعنه بزجاج رمحه ، فانقلب على الأرض خائر القوى ، وهم عنترة أن يقضى عليه، فابتدره الربيع قائلا :

الصنيعة يا بن عمى ! ! الصنيعة يا بن عمى ! ! فقد عودتنا الصفح وكرم الطبع ! فقال عنترة:

إنك للمعروف لجحود، إذ تدعونى ابن العم ورقبتك تحت المهند ، فإذا ما كشفنا عنك ضرك، وجلست بين أخدانك ، دعوتنى العبد الأسود . انزع عنك هذه الدرع المغصوبة، حتى أسلمها لسيدك ومولاك قيس . فنزعها على الفور، ورجاه أن يخلى سبيله؛ وأخذها عنترة منه وقال:

أخليت سبيلك متفضلا عليك، وكان فى وسعى أن أعذبك ، وأن أقتلك . ثم انفلت هو وأخوه شيبوب ومالك بن زهير إلى الملك قيس ، فلقيه فى الطريق على رأس جيش حافل، وكان فرّ بعض العبيد إليه وأخبروه بما فعل الربيع ، فقال عنترة :

ما كان لك أن تتعب نفسك وتتعب جيشك وعنترة فيه نفس يتردد ، وناوله الدرع ، فسر بها قدر ما سر لعودة أخيه مالك سالما ، وأثنى عليه ثناء جميلا، ورجعوا جميعهم إلى الديار فرحين ، وهناك أطلق عنترة عمارة بعد أن ذاق الويل فى اعتقاله .

ولما عاد الربيع إلى وادى اليعمورية، وقد غشيه غم عظيم من تلك الهزيمة المنكرة ، جمع رجاله الذين هجروا الأوطان معه، فقال لهم :

ما كنت أظن أنكم تتقاعدون عن نصرتى ، وتنفضون من حولى !

فقالوا :

لقد أردتنا على أن نقاتل ملوكنا وبنى أعمامنا وذلك أمر دونه خروج الروح . فقال :

وما دام هذا موقفكم منى فلست فى حاجة إلى جواركم .

فقالوا : ونحن لا نحب مصاحبتك، ولا نرضى أن نسير معك على هوى من حقدك وحسدك .

ثم أمر إخوته ونفراً قليلا من عشيرته أن يصحبوه إلى بنى فزارة ؛ أما بقية الرجال فقد عادوا إلى ديارهم نادمين على اتباعه وهجرتهم الديار من أجله ، وقد اعتذروا لبنى أعمامهم عما فعلوه من الهجرة نزولا على رغبة الربيع الذى كان يقودهم إلى الهاوية .

ولما وصل الربيع إلى بنى فزارة واجتمع بحذيفة بن بدر فارسهم وسيدهم ، قص عليه ما جرى له ، فقال حذيفة :

لقد أخطأت فى التدبير ، إذ نزلت بوادى اليعمورية ، ولو أنك جئتنى لكان لنا مع عنترة شأن عظيم تطيب له نفسك ؛ وأما عمارة أخوك فلا إخاله إلا فى قبضة عنترة الآن ، وربما قتله ، وألقى للطير والوحش جثته .

فقال الربيع : لقد حير هذا العبد الأسود منا العقول، وألبسنا ثياب

الصغار والمذلة ، وليس لنا خصيم غيره ، ولن تطيب لى الحياة حتى أقتله.

وبينما هم يتحدثون دخل عليهم عمارة فى ثياب المذلة والمسكنة ، فقص عليهم ما لقيه ؛ فزاد الربيع همًّا على همه ، ودعا على نفسه بالويل والثبور ، إن لم ينتقم من هذا العدو المبين ؛ فالتفتت فاطمة أم عمارة إليه وقالت :

أما نهيتك يا عمارة عن مناوأة هذا الفارس الجبار ، ونصحت لك أن تسلو عبلة وهواها ؟ !

فقال عمارة : ولن أنتهى عن مناوأة هذا الشيطان المريد ، حتى أنال منه ما أريد ، أو أكون طعاماً لوحش البيد .

وقال الربيع : وستبلغ فيه ما ترجو بتدبيرى ومكرى .

* * *

أطلق عنترة عمارة وهو فى زى العبيد ، وعلى يديه ورجليه آثار القيود ، وقال له : قد كنت عزمت أن أبقيك أسيراً حتى تخرج من سجن أسرك فى دنياك ، إلى سجن آخرتك فى قبرك ، ولكنى قضيت منكم مأربى ، فكرهت أن أراك عندى ، فاذهب إلى أخيك حيث كان وقل له : هات ما عندك ، فما أنت إلا ملاق من عنترة حسابك .